الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة أبو بكر بلقايد- تلمسان

كلية الآداب واللّغات

مذكرة تخرّج لنيل شهادة الماجستير في الدراسات الأدبية بين القديم والحديث

بعنوان:

ابن بسام الشنتريني ناقدا

إعداد:

مجاهدي فايزة

إشراف الدكتور:

بن اعمر محمد

أعضاء لجنة المناقشة:

أ.د.أحمد دكار	رئيسا	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان
أ.د.محمد بن اعمر	مشرفا ومقررا	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان
أ.د.بومدين كروم	عضوا مناقشا	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان
د.عبد القادر بن عزة	عضوا مناقشا	أستاذ محاضر(أ)	جامعة تلمسان
د.محمد محي الدين	عضوا مناقشا	أستاذ محاضر(أ)	ملحقة مغنية

السنة الجامعية: 2012-2013

لكلّ شيءٍ إذا ما تمّ نقصان

فلا يغرّ بطيب العيش إنسان

أبو البقاء الرّندي

إهداء

إلى التي حملتني وهنا على وهن، وجعلت الصّعب سهلا

إليك أمّي.

إلى الذي أنار لي درب الحياة، ووفّر لي أسباب النّجاح.

إليك أبي.

إلى الذي ساعدني وفرّج عليّ همّي كلّما سرّت في وجهي أبواب الحياة

إليك زوجي.

إلى كلّ أفراد عائلة مجاهري دون استثناء

إلى عائلتي الثانية بختي من صغيرها إلى كبيرها

إلى كلّ الذين تفضّلوا عليّ بنصيحة، أو زوّدوني برأي في هذا البحث

إلى هؤلاء جميعا

أهدي هذا العمل المتواضع.

إلى من نسيهم قلمي ولم ينساهم قلبي

فايزة

كلمة شكر

أشكر الله سبحانه وتعالى الذي أمرّني بالعلم والصحّة والنّجاح.

اعترافا بالفضل لأهله وعملا بقول الرّسول ﷺ: "من صنع إليكم معروفا فكافؤوه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه"

أتقدّم بخالص الشّكر والتقدير إلى من كان منارة للعلم ومنبرا للمعرفة، إلى من كان قدوة لي ومثلا رائعا للتواضع والبساطة.

إلى أستاذي الفاضل محمد بن اعمر على قبوله الإشراف على هذا البحث، وعلى كلّ النصائح والتوجيهات التي تقدّم بها إليّ ليخرج هذا البحث إلى النّور.

أشكر كلّ الأساتذة الذين أشرفوا على تدريسي وتلقيني العلم من الابتدائي حتىّ الجامعة.

شكرا لكم على كلّ مجهود قمتم به من أجلي.

مقدمة

بسم الله الرّحمن الرّحيم
والصّلاة والسّلام على أشرف المرسلين

إذا كان الأدب العربي بشكل عامّ والمشرقيّ بوجه خاصّ قد استولى على اهتمام الدّارسين، فإنّ الأدب الأندلسي على كثرته لم يصل إلى ذلك الاهتمـــام الكبير الذي لقيه نظيره في المشرق. وهذه اللاّمبالاة كانـــت مـــن الأندلســـيين أنفسهم حين أعرضوا عنه وراحوا يتهافتون على أدب المشارقة.

ولا شكّ أنّ الأدب الأندلسي وصل إلى مرحلة متطوّرة جـــدّا حيـــث وصلت إلينا كتب لا بأس بها من ذلك الإقليم على الرّغم من ضياع أمّهـــات الكتب في الفتنة البربرية. لكن لا بدّ أن نشير إلى أنّ هذا الأدب قد تأثّر بـــأدب المشارقة شكلا ومضمونا، ولبس لباس التأثّر فجاء خصبا متنوّعا ممّا دفع ببعض الدّارسين والنّقاد إلى دراسته وإعادة النّظر فيه.

ومن الأسباب التي دفعتني إلى البحث في الأدب الأندلسي بصفة عامّـــة والنّقد بصفة خاصّة هو رغبتي في البحث في هذا الأدب الغزير الذي تركه لنـــا أجدادنا في الأندلس، فاخترت كتاب "الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة" لمؤلّفـــه "ابن بسّام الشّنتريني الأندلسي" بصفته كتابا نادرا وقيّما يحتـــوي علـــى الأدب والنّقد والتّاريخ والسّياسة. فوجدته مادّة دسمة للبحث، فاخترت الجانب النّقدي في الكتاب.

والبحث في شخصية أبي الحسن وكتابه "الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة" متشعّب وصعب ، حيث كانت معلوماتي عن الموضوع محدودة جدّا في بدايـــة

جمع مادّة بحثي، لكن تعليمات أستاذي ونصائحه كانت تردّني إلى الطّريق كلّما خرجت عنها.

وأظهر لي اطّلاعي عن وفرة الدّراسات الجامعية التي تناولت شخصـــية مهمّة كشخصية ابن بسّام وكتابا نادرا وقيّما ككتاب "الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة" على الرّغم من كثرة الدّراسات التي تناولت الأندلس وآدابهـــا، لكـــن هناك دراسة قدّمها د.علي بن محمد لنيل شهادة الدّكتوراه في الأدب الأندلسي وسمها بـــ" ابن بسّام الأندلسي وكتاب الذّخيرة دراسة في حياة الرّجل وأهـــمّ جوانب الكتاب" وهي الدّراسة الوحيدة التي وقعت بين يدي والتي اســـتوفت تقريبا كلّ جوانب الكتاب و حياة المؤلّف على الرّغم من الصّعوبات التي لقيها وذكرها في هذا المؤُلّف.

وقد نهلنا من كتاب د. محمّد رضوان الدّاية المعنون بـــ "تـــاريخ النّقـــد الأدبي في الأندلس " ما أثرينا به مادة بحثنا ،حيث تحدّث المؤلّف في كتابه عـــن أوّلية النّقد وذكر بعض الكتب التي أُلّفت في هذا المجال و منها كتاب الـــذّخيرة الذي أشار إليه المؤلّف إشارة خفيفة.

وفي الصّدد نفسه توجد دراسة أخرى قام بها د. عليان عبد الرّحـــيم في كتابه الموسوم بـــ:" تيّارات النّقد الأدبي في الأندلس في القرن الخامس الهجري" وهي دراسة مشابهة تقريبا لدراسة د.محمد رضوان الدّاية.

وقد حقّق الكتاب مرّتين الأولى كانت من طرف لجنة مكوّنة من **طـــه حسين** والثانية حقّقه د. إحسان عبّاس، وكانت هذه الطبعة التي اعتمدت عليها في بحثي.

فهل يعتبر كتاب "الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة" كتابا نقديا؟ وإن كان كذلك ماهي التيّارات النّقدية التي مارسها ابن بسّام في الكتاب؟.

واقتظت خطّة البحث أن تكون في تمهيد ومدخل وثلاثة فصول وخاتمة.

خصّصت المدخل للحركة النّقدية في الأندلس من القرن الأوّل إلى القرن السّادس الهجري، حيث تتبّعت تطوّر النّقد والعوامل التي أثّرت فيه.

وتناولت في الفصل الأوّل سيرة ابن بسّام الأندلسي وكتاب الـــذّخيرة، حيث تطرّقت إلى مولده وحياته وذكرت كذلك سنة وفاته وتحدثت عن بعض مؤلّفاته التي ذكرها في الذّخيرة لكنّها لم تصل إلينـــا، ثمّ تطرّقـــت إلى دراســـة الكتاب ، فذكرت سبب تأليف أبي الحسن للذّخيرة ، والعنوان الذي أطلقه على مؤلّفه حيث كان مناسبا جداّ للموضوع الذي تناوله، ثمّ تكلّمت على شـــهرته التي بلغت الآفاق، ممّا دفع بالكثير إلى اختصاره كما فعل **ابن مماتي** في كتـــاب سمّاه "ذخيرة الذّخيرة" ثمّ ذكرت مصادر ابن بسّام في تأليف الكتـــاب، حيـــث اختلفت من مصادر مشرقية وأخرى أندلسية،كما تطرّقت إلى منهج ابن بسّـــام في الكتاب بدءا من المقدّمة ووصولا إلى الخاتمة.

أمّا الفصل الثّاني فتحدّثت فيه عن النّقد الأدبي والدّيني و الأخلاقي عند ابن بسّام، حيث ذكرت موقف ابن بسّام من الأدب بصفة عامّـــة، ودعوتـــه الصّريحة إلى الجديد، ثمّ بيّنت موقفه من الموشّحات بصفتها غرضا غريبـــا عـــن الأدب العربي، وبعدها إشارة خفيفة إلى نوع من النّقد وجدناه عند أبي الحسن هو النّقد التّاريخي، ثمّ تطرّقت إلى النّقد الدّيني والأخلاقي والفرق بينهما وبدأت أوّلا بعرض موجز لتدخّلات ابن بسّام النّقدية المختلفة، وتكلّمت عـــن النّقـــد

الأخلاقي عند ابن بسّام وعرضت مختلف الآراء التي ذكرها بسام، وأخيرا تحدثت عن النّقد الدّيني وموقفه من بعض الشّعراء الذين كانوا يستعملون ألفاظ القرآن الكريم في أشعارهم.

وأفردت الفصل الثّالث للنّقد الفنّي ، و بدأته بالبديع الذي يحبّه ابن بسّام ويعدّه مقياسا للمفاضلة بين الأشعار، ثمّ تطرّقت إلى بعض الأنواع التي ذكرها كالتّشبيه، والاستعارة، والاستطراد، والتّقسيم، والتّمثيل، والمعاقدة، والإيجاز إلى غير ذلك من الأنواع البديعية، ثمّ تحدثت عن قضيّة اللّفظ والمعنى مع طرح لبعض آراء النقّاد في هذا الصّدد وأخيرا خاتمة جمعت فيها نتائج هذا البحث.

أمّا المنهج الذي وظّفته فهو المنهج التّاريخي في ترجمة ابن بسّام، والمنهج الوصفي في وصف أحوال الأندلس في المدّة المؤرّخة، والمنهج التّحليلي في قراءة النّصوص والتّعليق عليها.

وبعد أن ضبطت خطّة بحثي رجوت أن أوفّق في جمع مادّة الموضوع الذي كان صعب المتناول، و قليل المراجع، لهذا وجدت نفسي أمام صعوبات البحث العلمي الطّبيعية التي لا يخلو منها بحث، أوّلها قلّة المراجع التي تناولت سيرة ابن بسّام وكتابه الذّخيرة وكذلك تداخل المعلومات فيما بينها. إلاّ أنّ هذه الصّعوبات لم تمنع من أن يأخذ بحثي صورة تقريبية لموضوع النّقد عند ابن بسّام الشّنتريني.

وحسبي في الأخير أنّي بحثت واجتهدت فإن وفّقت فمن الله وإن قصّرت فمن نفسي، فأرجو من الله سبحانه وتعالى أن يوفّقني وأن يوفّق كلّ من يجتهد ويبحث من أجل النّهوض بالعلم والمعرفة وبناء صرح قويّ للحضارة الاسلامية.

وأخيرا أشكر أستاذي المشرف الذي تفضّل عليّ بنصائحه، ولكلّ مـــن وجّهني في هذا البحث، وزوّدني بنصيحة أو بكلمة. فلكم مني أعظـــم التّقـــدير والشّكر والعرفان.

فايزة مجاهدي في:

تلمسان : 04 نوفمبر 2012م الموافق لـــ : 20ذي الحجّة 1433هـــ

مدخل

الحركة النّقدية في الأندلس من القرن الأول الهجري إلى القرن السادس الهجري

يعدّ الأدب الأندلسي حلقة من حلقات الأدب العربي، ومحطّة مهمّة من تاريخ الأندلس الإسلامية منذ أن فتحها العرب في أواخر القرن الأوّل الهجري، ـــ أي سنة 92هـــ ـــ على يد طارق بن زياد.

وقد اشتهرت الأندلس بسحر جمالها، ونقاء هوائها، وترف أهلها، وهذا الوضع الاجتماعي الجيّد نجم عنه وضع ثقافي ثري بكلّ أنواع الآداب والعلـــوم لكن لا بدّ أن نشير إلى أنّ هذا التّرف كان سبب سقوط الأندلس نتيجة صرف الحكّام جلّ اهتمامهم بتشييد البنيان وجلب القيان والغناء. لكن كان له جانب إيجابي حيث أنّ هذا التّرف ولّد حركة ثقافية نشطة في مختلف المجالات وحركة نقدية بسيطة في بداياتها حيث غلب عليها الذّوق الشّخصي واهتمام كبير باللغة تدور في مجملها حول القضايا النحوية واللغوية.

وبدأت بذور النّقد تظهر في حلقات المؤدّبين الذين كانـــت آراؤهـــم ساذجة. ومن تلك المواقف والملاحظات النّقدية، ما أنشده عبّاس بن ناصح[1] في أحد المجالس الأدبية من قصيدة يقول فيها:

بَقَرْتُ بُطُونَ الشِّعْرِ فَاستُفْرِغَ الحَشَا بكَفّي حَتّى آبَ خَاوِيَه منْ بَقْري

فقال له شاعر يسمّى بكر بن عيسى: "أما والله يا أبا علي لئن كنـــتَ بقرتَ الحشا فقد وسّختَ يديك ببقْرته، وملأتَها بدمـــه، وخبّثْـــت نفســـكَ

1)- عباس بن ناصح الجزيري: من أهل العلم باللغة والعربية، فصيح اللسان كان مذهبه في الشعر مذاهب العرب الأوائل في أشعارهم. ينظر: طبقات النحويين واللغويين أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي الأندلسي، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف، مصر،ط2.ص262.

وخشمْتَ أنفكَ بعَرقه"[1]، فتعليق بكر بن عيسى على بيت عبّاس بن ناصح يُظهر مدى ارتباط النّقد في تلك الفترة بالسّذاجة و بالذّوق الفردي.

وتتّسع دائرة النّقد قليلا لتشمل الجانب اللّغوي والنّحوي، فقد لقي عثمان بن المثنّ (ت.273هـ) أبا تمّام (ت231هـ) وقد روي أنّ أبا تمّام أنشد شعره الذي يقول فيه:

اللهُ أَكْبَرُ جَاءَ أَكْبَرُ مَن مشىَ فَتَعثّرَتْ في كُنْهه الأوهامُ[2]

(وفي الدّيوان "تحيّرت") وكان هذا البيت مبتدأ الشّعر، فقال له ابن المثنى: "شعر حسن لولا أنّه لا ابتداء له". فوقدت في نفس حبيب(يعني أبا تمام) وابتدأ الشّعر بقوله:

دِمَنٌ ألَمَّ بهَا فقَالَ سلاَمٌ كَمْ حَلَّ عُقْدة صبره الإلَمَامُ[3]

ثمّ أنشده الشّعر في اليوم التّالي بهذا الابتداء إلى تمامه، فقال له ابن المثنّ: "أنت أشعر النّاس" فعظم ذلك في نفس حبيب، ثمّ لقيه في انصرافه وحبيب قد عظم قدره وجلّ خطره، فكان يؤثره ويعرف فضله"[4]. فحسن الابتداء من

---

1)- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد المقّري التلمساني، تحقيق، إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1408هـ، 1988،262/2.

2)- ديوان أبي تمام: تقديم وشرح محي الدين صبحي، دار صادر، بيروت، 1997م، 75/2.

3)- المصدر نفسه،75/2.

4)- التكملة لكتاب الصلة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي المعروف بابن الأبار، ق1، من طبعة الشيخ فدارة زيدين، مجريط، 1886، 1889، ومن طبعة قترالش، بلنسية في مجريط، 1915م، تحقيق ألفريد بل وابن أبي شنب، مطبعة الشرفية للأخوين بونطان،1637هـ، 1919م، ص 12، 13.

جمال الشّعر ورونقه، وهذا ما أدّى بأبي تمّام إلى ابتداء قصيدته بهذا البيت الشّعري، لأنّه أدرك أهمّية توجيه ابن المثنّى له وهو شاعر مجيد ولغوي محنّك وإلاّ كيف نفسّر أخذ أبي تمّام برأيه؟.

وروي عن عبّاس بن ناصح:" أنّه كان لا يقْدِم من المشرق قادم إلاّ كشفه عمّن نجم في الشّعر بعد ابن هرمة[1] حتّى أتاه رجل من التّجار فأعلمه بظهور حسن بن هانئ(362هـ) وارتحاله من البصرة إلى بغداد، والمحلّ الذي حلّه من الأمين وبني برمك، فأتاه من شعره بقصيدتين إحداهما قوله:

جَـرَيْـتُ معَ الصّبَا طَلْـقَ الجُـمُـوحِ

والثّانية:

أَمَـا تَـرَى الشّمـسَ حلّـتْ الحَمَـلاَ

فقال ابن عبّاس :"هذا أشعر الجنّ والإنس. والله لا حبسني عنه حابس فتجهّز إلى المشرق"[2].

وقد كان النّقد الذّاتي الذي مبعثه الإحساس والقائم على الذّوق الفطري، هو المسيطر على النّقد الأندلسي في مرحلته الأولى، حيث كان النّاقد يرجع إلى السّليقة العربية ليستقي منها أحكامه. ومثال ذلك ما أنكره جودي النّحوي (ت.380هـ) على بيت عباس بن ناصح الذي يقول فيه:

يَشْهَـدُ بالإخْلاَص نُوتِيُّهَا للهِ فيهَا وهْو نصْـرَاني

---

1)- ابن هرمة: هو إبراهيم بن علي بن سلمة بن هرمة، من متقدّمي الشّعراء.(ينظر: طبقات النحويين واللغويين، الزبيدي،ص262.

2)- ينظر:المصدر نفسه ص262.

فوقع عبّاس في خطأ نحوي حيث لم يشْدُد ياء النّسب، وكان بالحضـــرة رجل من أصحاب عبّاس فساءه ذلك، فقصد إلى عبّاس وكان مسكنه الجزيـــرة فلمّا اطّلع على عبّاس بن ناصح قال له:" ما أقدمك – أعـــزّك الله – في هـــذا الأوان؟ قال: أقدمني لحنك؟. قال عبّاس: وكيف ذلك؟ فأعلمه بما جرى مـــن القول في البيت.

قال: فهلاّ أنشدت قول عمران بن حطّان (ت.89هـــ):

يَوْمـــاً يَمانَ إذا لاقيتُ ذا يمنٍ وإنْ لقيتُ مُعَدّياً فَعَدْ نانـــي

قال: فلمّا سمع البيت كرّ راجعا، فقال له عبّاس: لو نزلـــت فأقمـــت عندنا؟ قال: ما بي إلى ذلك من حاجة، ثمّ قدم قرطبة فاجتمع بجودي النّحـــوي وأصحابه فـــأعلمهم"[1].

فمن خلال ما سبق يتّضح أنّه كان هناك تتبّع للأخطاء والسّـــهر علـــى تصحيحها، كما كان هناك اهتمام باللّغة والحرص علـــى تصـــحيح الأخطـــاء النّحوية، والرّجوع إلى الأسس اللّغوية الصّحيحة. ومن ذلك أيضا مـــا أنشـــده عبّاس بن ناصح في أحد المجالس:

لَعَمْرُكَ ما لبلْوى بعارٍ ولا العدمُ إذا المرءُ لم يعْدم تُقى الله والكرمُ

فقال له يحي الغزال –وكان صغيرا آنذاك– "يأيّها الشّيخ وما الذي يفعل مفعّل مع فاعل؟ فقال: فكيف تقول أنت؟ قال: تجافّ عن الدّنيا فليس لعاجز. فقال عباس: والله لقد طلبها عمّك ليال فما وجدها"[1].

---

1)– المصدرالسّابق ، ص256–257.

وقد تأثّر النّقد الأندلسي بنقد الرّواة المشارقة، "إذ أنّ الكثير من المؤدّبين سافروا إلى المشرق للقاء بعضهم(1) وقد ظهر ذلك بشكل لافت في أواخر القرن الثّالث الهجري وبداية الرّابع، ومثال ذلك ما أثاره ابن عبد ربّه القرطبي(ت.328هـ) من قضايا عديدة في كتابه "العقد الفريد": "كالحديث عن فضائل الشّعر وعيوبه، وسرقاته، إلى غير ذلك من المسائل التي شغلت المشارقة"[2]، وكان تركيزه على الخطبة التي تفاخر بها العرب كثيرا، وأورد فصلا في الكتابة، بالإضافة إلى مجموعة من النّصائح التي قدّمها للأدباء، "معتمدا في ذلك على مصادر نقدية متعدّدة، كالبيان والتّبيين، وعيون الأخبار، وطبقات الشّعراء، والكامل..."[3].

وإلى جانب ذلك أثار قضايا بلاغية محضة، كحديثه عن البيان وتعريفه له بأنّه: "كلّ شيء كشف لك عن قناع المعنى الحقيقي حتى يتأتّى إلى الفهم ويتقبّله العقل"[4] ،وقرنه بالبيان الذي ذكره الله -عزّ وجلّ- في محكم تنزيله، كما تحدّث ابن عبد ربّه عن البلاغة وصفتها و عرض آراء" الأقدمين وبعض الشّعراء

---

1)- المُغرب في حلى المَغرب، ابن سعيد المغربي، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، 1953، 1/324-325. نقلا عن: تيارات النقد الأدبي في الأندلس في القرن الخامس الهجري: مصطفى عليان عبد الرحيم، مؤسسة الرسالة، ط1، 1404هـ، 1984.

2)- ينظر: تاريخ النقد الأدبي عند العرب: نقد الشّعر د . إحسان عبّاس، دار الأمانة، بيروت، ط1، 1981م، ص478.

3)- تيارات النّقد الأدبي في الأندلس**الهجري الخامس ال قرن في** ،د عليان عبد الرحيم، ص50.

4/ العقد الفريد: ابن عبد ربّه، تحقيق عبد الحميد الرحيني، منشورات علي بيضون، دار الكتب العلمية، 1471هـ، 1991م، 2/124.

وغيرهم"[1]، كما عني صاحب العقد بالجواب الدّقيق السّريع وجعله من أصعب الجوابات لأنّه يأتي فجأة.

وخصّص المؤلّف فصلا كاملا للتّوقيعات والفصول، والصّدور، وأخبار الكتبة وتحدّث عن الإيجاز وفضْله فقال: "إذا كان أشرف الكلام كلّه حسنا وأرفعه قدرا، وأعظمه من القلوب موقعا، وأقلّه على اللّسان عملا، وما دلّ قليله عن كثيره، وشهد ظاهره عن باطنه، وذلك أن تقلّ حروفه وتكثر معانيه"[2].

وجعل فصلا كاملا للشّعر والشّعراء سمّاه في فضائل الشّعر ومخارجه " بدأه بإظهار مكانة الشّعر عند العرب وأشار إلى ما علّقوه على أستار الكعبة بماء الذّهب[3]، وأثار قضيّة ما يجوز من الشّعر ممّا لا يجوز في الكلام وهو ما يسمّى بالضّرائر الشّعرية، و لم يذكر رأيه في هذا الموضوع بل أدرج آراء لسيبويه (ت.180هـ والأصمعي (ت.215هـ) وغيرهما.

كما عالج ابن عبد ربّه قضيّة اللّفظ والمعنى، وتحدّث عن المعنى الجزل واللّفظ الحسن وجعلهما من رونق الكلام وحسنه، وتحدّث أيضا عن الطّبع والصّنعة، وقال إنّ اللّفظ إذا كان على السّليقة جاء سلسا سهلا.

و لم يقتصر ابن عبد ربّه على إيراد آراء النّقّاد بل كان أحيانا يعطي رأيه في بعض القضايا إذ أتى بمجموعة من الأشعار لبعض المتقدّمين، عليها مآخذ فردّها وعلّق عليها.

---

1)- المصدرالسابق، 124/2.

2)- المصدر نفسه155/4.

3)- ينظر: المصدر نفسه، 270/5.

وقد تطوّر النّقد بشكل واضح في القرن الرّابع الهجري لعدّة أسباب منها:

1- المؤدّبون:

كانت مهمّة المؤّدبين في هذه الفترة تتبّع الأخطاء النّحوية واللّغوية وتصحيحها، إذ كانت المجالس الأدبية تُعقد لإنشاد الشّعر وشرحه وتصحيح أخطاء الشّعراء، ومن هؤلاء ابن الأصفر[1] الذي كان مؤدّبا بالقرآن والحديث والشّعر، ومؤلّفات النّحويين واللّغويين ومنها: طبقات الشّعراء بالأندلس لأبي عبد الله محمّد بن عبد الرّؤوف (ت.343هـ)، وأخبار الشّعراء بالأندلس لعبادة ابن ماء السّماء(ت.416هـ)، وأثر أبي تمام في الأندلسيين مما دفع بالكثير من الشّعراء إلى معارضته ومحاكاته، وأيضا أثر الوافدين في الأندلس.

واجتهد المؤدّبون في جمع أدب المشارقة وآرائهم في مختلف القضايا "فأبو موسى الهوّاري أوّل من جمع الفقه في الدّين وعلوم العرب بالأندلس، ورحل فلقي مالكا ونظراءه من الأئمّة ولقي الأصمعي وأبا زيد الأنصاري ونظراءهما وداخل الأعراب في محّالها"[2].

2- مسجد قرطبة:

كان الأدباء على اختلاف اتّجاهاتهم ومذاهبهم يجتمعون في مسجد قرطبة، حتّى غدا المسجد حلقة لطلاّب العلم ومريديه، حيث" كانوا يقيمون الشّروح على الدّواوين والمؤلّفات الوافدة عليهم، كشرح الطّبيخي (ت352.هـ)

---

1)- ابن الأصفر: هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله المكفوف، كان مؤدّبا بالقرآن والحديث والشعر والنّحو. ينظر: طبقات النحويين اللغويين، الزبيدي، ص303.

2)- المصدر نفسه، ص253.

على شعر مسلم بن الوليد، وشرح أبي القاسم الإفليلي (ت.441هـ) على ديوان المتنبّي (ت.354هـ)"[1]، إذ كان المؤدّبون يقوّمون الدّيوان ويقفون فيه على الشّعر ورَاويته، ومواطن الأخذ والسّرقة، والبديع وتفريعاته ، والضّرائر الشّعرية، وتنبيهات على اللّغة والتّفسير والنّقد"[2]، وهذا يبيّن أنّ المساجد في الأندلس لم تكن مهمّتها الوعظ والإرشاد فقط؛ بل كان دورها أيضا نشر العلم والمشاركة في العملية النّقدية من خلال الحلقات التي كان العلماء يعقدونها فيه.

3/أثر القالي:

دخل أبو علي القالي (ت.356هـ) قرطبة سنة (300هـ) "حاملا معه مجموعة شعرية ضخمة ضمّت سبعة وسبعين من الدّواوين وسبعا من القصائد بين جاهلي وإسلامي ومخضرم ومحدث"[3]، وقد عمل القالي على تقريب العلم لطلاّبه وحرصه على اطّلاعهم على وجهات نظر العلماء في العلم الواحد وفي العلوم المختلفة، وارتكز أبو علي في منهجه على" نقد الروّاة ونقد الذّوّاقين، وليس يخفى ما بين الاتّجاهين من تلاحم مردّه إلى الاحتكام في كلّ واحد إلى صفاء الطّبع ونقاء اللّغة وفحولة المعاني، والتّعبير عن الفطرة السّليمة"[4] والواضح أنّ القالي من الذين تبنّوا الاتّجاه الأخلاقي في الشّعر؛ ويظهر ذلك في حثّه لطلاّبه

1)- ابن حزم أديبا وناقدا، رسالة ماجستير مخطوطة بجامعة دمشق، إعداد الطالب محمد بن اعمر، جامعة دمشق، 1987م، ص233.

2)- تيارات النقد الأدبي في الأندلس في القرن الخامس الهجري،د . مصطفى عليان عبد الرحيم، ص45.

3)- المرجع نفسه، ص20-21.

4)- المرجع نفسه، ص67.

بأن يرووا الشّعر ذي المعاني الفاضلة، ودليل ذلك موقفه من الهجاء الذي كان موقفا وسطا.

4/أثر المتنبيّ والمعرّي:

شاعت طريقة المتنبيّ في الشّعر بين الأندلسيين، نظرا لوصول ديوانه وشرحه من قبل ابن الإفليلي ، وابن السيّد البطليوسي (ت.521هـ) ممّا ترك أثرا عميقا في الشّعراء لأنّ شعره كان سلسا يؤصّل به لمذهب العرب الأوائل.

ويبدو أنّ المتنبّي حظي باستحسان الأندلسيين، حتى إنّ ابن بسّام الأندلسي في الذّخيرة تتبّع شعره و علّق على بعضه، وكانت معارضة المتنبّي مقياسا للبراعة وحسن النّظم، فنسج الشّعراء على طريقته ومنواله، حتى أضحى شعره مثالا يتحدى به.

أمّا أبو العلاء فما كاد يسطع نجمه في المشرق حتى ذاع صيته في الأندلس، "فرحل إليه الشّعراء ينهلون من أدبه ووفد إلى الأندلس من يحفظ شعره"[1]، كما اهتمّ الأندلسيون بنثره، خاصّة برسائله التي أعجبوا بها كثيرا لطابعها الفكاهي.

5- أثر الخلفاء:

كانت لمسة الخلفاء واضحة في نقد القرن الرّابع الهجري، لاسيّما الحكم المستنصر(350هـ-366هـ) الذي" شجّع العلماء والأدباء على التّأليف

1)- المرجع السابق، ص34.

والشّرح، وأغدق عليهم الهدايا والعطايا، إضافة إلى ما بذله من جهد لاستقدام الكتب من الآفاق، وما انتدبه من نسّاخ وورّاقين لاستنساخ عيون المؤلّفات"[1].

كما جنح الحكم المستنصر إلى جمع شعر المشارقة ومؤلّفاتهم الأدبية، إلى جانب المحاورات الأدبية في مجالس المنصور والمناقضات والمعارضات التي كانت تجري بين الشّعراء على البديهة الارتجال.

وهكذا ظلّ النّقد في الأندلس يتطوّر بوتيرة ضعيفة حينا ومتوسّطة أحيانا، حتّى مطلع القرن الخامس الهجري، أين ظهرت طائفة من الشّعراء حاولوا أن يظفوا خصوصية الأندلس على أدبهم، وازدهرت الحركة النّقدية بشكل لافت، سببها التّأثير المشرقيّ في الشّعراء والنقّاد ، والخصومات التي كانت تجري بينهم، والاحتكام إلى قواعد النّحو و الصّرف ومشاركة الفقهاء في العملية النّقدية، وإخضاع النّقد إلى المعيار الأخلاقي. ومن بين هؤلاء: **ابن شهيدالأندلسي** (ت.426هـ) الذي أثار في رسالته "التّوابع والزّوابع" قضايا نقدية عديدة كمسألة البيان، وكيف يتأتّى للإنسان؟ وماهي أدواته وآلاته؟ وهل البيان واحد في كلّ العصور أم أنّه تتغيّر مقاييسه بتغيّر الزّمان؟ حيث يرى ابن شهيد أنّ البيان نتاج شيئين متلازمين: الطّبع والصّنعة.

وأنّ "إصابة البيان لا يقوم به حفظ كثير الغريب واستيفاء مسائل النّحو،

1)- ابن حزم أديبا وناقدا، محمد بن**اعمر** ، ص54.

بل الطّبع مع النّحو والغريب. ويعني به أن يتركّب الحسن من غير حسن"[1]، وضرب مثالا لذلك قول **امرئ القيس:**

تَنَوَّرْتُهَا منْ أَذْرُعَات وَأَهْلُهَا بيَثْرِبَ أدْنَى دَارِهَا نَظَرٌ عالِ[2]

وعلّق عليه بقوله: " فإنّ هذه الدّيباجة إذا تطلّبت لها أصلا من غريب لم تجده"[3]، كما تحدّث ابن شهيد عن الخطابة وجعلها نوعين: رفيع ووضيع وقال: "كما لكلّ مقام مقال فكذلك لكلّ دهر كلام، ولكلّ طائفة من الأمم المتعاقبة نوع من الخطابة وضرْب من البلاغة"[4]، وتطرّق في رسالته إلى النّثر فقال: "ألا ترى الزّمان كيف أحال الرّسم الأوّل في هذا الفنّ إلى طريقة عبد الحميد وابن المقفّع وسهل ابن هارون وغيرهم من أهل البيان؟ فالصّنعة معهم أفسح باعا وأشدّ ذراعا وأنور شعاعا لرجحان تلك العقول، واتّساع تلك القرائح في العلوم، ثمّ دار الزّمان دورانا فكانت إحالة أخرى إلى إبراهيم بن العبّاس ومحمد بن الزيّات وابن وهب ونظرائهم، فرقّت الطّباع وخفّت ثقل

---

1)–تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، د. محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة،1414ط2،هـ،1981م،ص144.

2)- ديوان امرئ القيس، جمع وتحقيق وشرح ياسين الأيوبي، المكتب الاسلامي، ط1، 1419هـ، 1998م.ص 124.

3)- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، تحقيق احسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1418هـ، 1997م، 232/1.

4/ التّوابع والزوابع، ابن شهيد الأندلسي، تحقيق بطرس البستاني، دار صادر، بيروت، 1400هـ، 1980م، ص59ـ60

النّفوس، ثمّ دار الزّمان فاعترى أهلها باللّطائف صلف وبرقّة الكلام تلف فكانت إحالة أخرى إلى طريقة البديع وشمس المعالي وغيرهما([1]).

ثمّ انتقل إلى الشّعر فلاحظ شيئا من التّشابه مع النّثر فقال:" وكذلك الشّعراء انتقلوا عن العادة في الصّنعة بانتقال الزّمان؛ وطلب كلّ ذي عصر ما يجوز فيهن وتهشّ له قلوب أهله، فكان من صريع الغواني وبشّار وأبي نواس وأصحابهم في البديع، ما كان من استعمال أفانينه والزّيادة في تفريع فنونه، ثمّ جاء أبو تمّام فأسرف في التّجنيس وخرج عن العادة وطاب ذلك منه وامتثله النّاس، فكلّ شعر لا يكون اليوم تجنيسا أو ما يشبهه تمجّه الآذان، والتّوسّط في الأمر أعدل ولذلك فضّل أهل البصرة صريع الغواني على أبي تمّام"[(2)]، فابن شهيد يتابع تطوّر الذّوق بدءا من طريقة عبد الحميد الكاتب، إلى طريقة صريع الغواني وبشّار وأبي نواس في البديع، وصولا إلى أبي تمّام ومذهبه في التّجنيس لكنّ ابن شهيد يدعو إلى الاعتدال و التوسّط فيه(أي التّجنيس) وإلى الجمع بين طريقة العرب القدامى و طريقة المحدثين.

وتحدّث أيضا عن الكتّاب فقال: "أوّل أدوات الكاتب العقل، ولا يكون كاتب غير عاقل، وقد نجد عالما غير عاقل وجدليا غير حصيف، وفقيها غير حليم"[(3)]، كما استبعد ابن شهيد ما يسمّى بالصّدق واعتبار الجودة والحسن أو القبح في الأثر الفنّي، فالمهمّ هو جماله وقدرة الأديب على حسن الصّياغة والتّعبير

1/الذخيرة، ابن بسام، 237/1

2)المصدر نفسه، 237/1-238.

3)- المصدر نفسه، 243/1.

عن الفكرة المقصودة ومقياس ذلك" أن تتناول الوضيع فترفعه والرّفيع فتضعه و القبيح فتحسّنه"[1]، كما ذكر قضيّة السّرقات الأدبية وقال إنّ الأخـــذ عنـــده درجات، فمن الشّعراء من يأخذ فيزيد فهو محسن ومنهم من يقصّر فهو مسيء.

وقد بدا ابن شهيد واضحا في قضيّة اللّفظ والمعنى من خلال النّصائح التي تقدّم بها إلى الأديب" فهو ينصح بالبحث عن اللّفظ الرّائق والمعنى الرّفيع بحيـــث يحصل من اجتماعهما البيان الذي طالما أشار إليه ويحذّر مـــن تزويـــق اللّفـــظ وبهرجته بما يذهب بأصالته وبضاعته"[2] فأبو عامر ليس مـــن دعـــاة التكلّـــف والصّنعة فهو يفضّل الشّعر الذي يخلو من أي بهرجة وتزويق.

ومجمل القول إنّ ابن شهيد قد قدّم جهودا نقدية تحسب له فهو أثـــرى النّقد الأندلسي بآرائه المتميّزة التي تبدو أنّها متأثّرة بالتّيّار المشرقي.

ومن النّقاد الذين تركوا بصمتهم في النّقد الأندلسي **أبـــو محمـــد بـــن حزم**(ت.456هـــ) الذي تطرق إلى مختلف القضايا الـــتي شـــغلته، وضـــمّنها مؤلّفاته الكثيرة. ومن تلك الآراء موقفه من الأغراض الشّعرية كالهجاء والغـــزل وشعر التّصعلك، وذكر الحروب ووقف منها موقفا دينيا خلقيا، وهذه النّظـــرة الأخلاقية إلى الشّعر قد أثارها أفلاطون الذي كان "يحفّز على أخلاقية الشّـــعر

1)- المصدر السابق، 1/274-275.

2)- تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، دمحمد رضوان الداية، ص304.

ويفرض رقابة شديدة على الفنّ، ويصدر على العديد من الشّعراء أحكاما قاسية انطلاقا من رؤيته للأخلاق التي تخدم نظام جمهوريته المثالية"[1].

ويرى ابن حزم أنّ كثرت التّشبيهات في البيت الواحد من دواعي جماله ومن دلائل البراعة وحسن النّظم، والتّشبيه من أكثر الصّور البيانية استعمالا في شعر العرب ونثرهم، لأنّه طريقة فنّية في إيصال المعنى إلى المتلقّي، ولهذا كان ابن حزم يعجب بتعدّد التّشبيهات أيّما إعجاب، ويعدّها من دلائل الحسن والبراعة، ويضرب مثالا على ذلك بتعليقه على هذا البيت:

فإنّها والليلُ نيــرَانُ الجــوَى قد أضْرمتْ في فكرتي من حنْدَس

فقال:" والواقع لي في هذه الأبيات تشبيه شيئين بشيئين وهذا مستغرب في الشّعر، ولي ما هو أكمل منه تشبيه ثلاثة أشياء في بيت واحد وتشبيه أربعــة أشياء في بيت واحد..."[2]

أمّا في القرن السّادس الهجري فقد ازدهرت الحركة النّقديــة بشــكل واضح، فقد كثرت المؤلّفات التي تناولت مختلف القضايا التي شغلت الشّــعراء والنّقاد على السّواء، منهم **ابن خفاجة الأندلسي**(ت 533هـ) الــذي بــدأ بالحديث في مقدّمة ديوانه عن الشّعر فقال : "والشّعر إذا اهتُبل به واعتُمل فيــه

1)- مفهوم الصّدق في النّقد العربي القديم: رسالة ماجستير مخطوطة بجامعة حلب، إعداد الطّالب مختار بولعراوي، نقلا عن ابن حزم أديبا وناقدا، محمد بن اعمر، ص34.

2)- طوق الحمامة في الألفة والآلاف، ابن حزم، تحقيق صلاح الدين القاسمي، دار بوسلامة للطّباعة والنشر والتوزيع، تونس، ص40-41.

ليس يخلو جيّده من سقط وانقسام، إلى طرفين ووسط فإنّ الأذهان بآخره تكلّ، والمواد من ألفاظ وقواف تقلّ، فكلّ ما ينشأ من أجزاء مؤتلفة فإنّما يتركّب من أشياء مختلفة"[1] فالشّعر حتّى وإن كان جيّدا لا يخلو من نقص يظهر في خاتمة الشّعر **د.إحسان عبّاس** على هذا الكلام بقوله:" كان أوضح الشّعراء مذهبا في النّقد، حين وقف يدافع عن مذهبه الشّعري فهو يرى أنّ الشّعر وإن جوّده صاحبه منقسم إلى طرفين ووسط وإنّ كلال الشّاعر يظهر في الطّرف الثّاني أي خاتمة القصيدة"[2].

ويواصل حديثه عن الشّعر فيقول:" والشّعر يأتلف من معنى ولفظ وعروض وحرف رويّ فقد يتعاصى في بعض الأمكنة جزء من هذه الأجزاء أو أكثر فَطَوْرا ينظم البيت وآونة ينثر"[3] ويرى ابن خفاجة أنّ الشّعر فيه تخييل ويحتمل الصّدق والكذب وذلك أن يقول القائل: "إنّي فعلت وإنّي صنعت من غير أن يكون وراء ذلك حقيقة فإنّ الشّعر مأخذ وطريقة إذا كان القصد فيه التّخييل فليس القصد فيه الصّدق، ولا يعاب فيه الكذب ولكلّ مقام مقال وهذا السّرد من الكلام إنّما يتكلّم فيه أهله، ومن شأنه عقده وحلّه([4]).

---

1)- ديون ابن خفاجة، تحقيق سيد غازي، ط2، منشأة المعارف بالإسكندرية، ص9.

2)- تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف والمرابطين،د إحسان عباس، دار الشروق للنشر والتوزيع، ص84.

3)- ديوان ابن خفاجة، ص9.

4/ .- المصدر نفسه، ص11

فهو يشترط في الشّعر الألفاظ المرهفة الرّقيقة وبطريقة أنيقة، خاصّة في الأغراض الشّعرية التي تتطلّب ذلك كالغزل والرّثاء.

وهكذا كان النّقد في الأندلس بداية ساذجة وأحكاما شخصية ذوقيـــة، غالبا ما يطغى عليها الجانب اللّغوي والنّحوي، ثمّ بدأت تظهر ملامـــح النّقـــد بفضل الحلقات العلمية التي كانت تُعقد في المساجد والأثر المشرقي الواضح. غير أنّ النّقد تطوّر في القرنيين الرّابع والخامس الهجريين بفضل المؤدّبين وأثر الوافدين على الأندلس وما حملوه معهم من عيون الأشعار وأمّهات الكتـــب، كمـــا لا ننسى دور الحكّام الذين اعتنوا بالأدب وتشجيع الأدباء على الإبداع، ثمّ اتّســـع نطاق النّقد في القرن السّادس الهجري نتيجة مشاركة الفقهاء في العملية النّقدية وإخضاعها للمعيار الأخلاقي.

الفصل الأول

ابن بسام الشنتريني و كتاب الذخيرة

يعدّ ابن بسّام الأندلسي أديبا وناقدا أندلسيا عرفه القرن الخامس للهجرة، وهو القرن الذي ازدهرت فيه الحركة الثّقافية بشتّى أنواعها فكثر الأدباء والشّعراء والنقّاد وامتلأت المكتبات في مختلف المجالات والاختصاصات. وابن بسّام واحد من هؤلاء الكتّاب الذين ساهموا في إثراء الحركة الثقافية بمؤلفاتهم ومنها "الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة" وسنحاول التعرّف على ابن بسّام من خلال المصادر والمراجع التي توافرت لدينا رسم صورة وافية له.

1- سيرة ابن بسّام الشّنتريني:

ألّف ابن بسّام كتاب الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة للتّعريف بأدباء الأندلس وذكر فضائلهم ومآثرهم، لكنّه بالمقابل لم يلق منهم الاهتمام نفسه حيث لم يكلّفوا أنفسهم عناء التّرجمة له ولو بإشارات خفيفة في مؤلّفاتهم؛ وهم كثيرون يصعب حصرهم، ولعلّ ذلك حسدا منهم وهذا ممكن جدّا نظرا لما حازه كتابه من الشّهرة والرّواج، أو أنّ شهرته بلغت الآفاق حيث لم يجدوا داع للتّرجمة له.

وقد أشارت بعض المصادر القديمة إلى كتاب "الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة "وأثنوا عليه و عظّموه، وقد اعتمد عليه الأدباء والنقّاد والمؤرّخون في كتاباتهم عن الأندلس، وبالضّبط عن القرن الخامس للهجرة، لكنّهم لم يذكروا له ترجمة وافية عن مولده ونشأته، ودراسته، ووفاته، واكتفوا بالقول "إنّه من شنترين وإنّه صاحب كتاب الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة"[1].

1)- مثال ذلك ما قاله ابن سعيد والمقّري وغيرهم.

ومن تلك التّرجمات ما قاله **ابن سعيد** (ت.673هـ) وهو أحد معاصريه: "كان مستوطنا إشبيلية وأظنّه منها"[1]، فهذا الكلام يدلّ على أنّ ابن سعيد يجهل كلّ شيء يتعلّق بابن بسّام، لكن يبدو أنّه اطّلع على كتاب الذّخيرة، وربّما أخذ منه أشياء تفيده على الرّغم من ذلك لم يبخل عنه بالصّفات والألقاب العظيمة. فقال في موضع آخر:" الرّئيس الفاضل، الأديب المؤرّخ، أبو الحسن علي بن بسّام صاحب كتاب الذّخيرة..."[2]، فلو كان الرّجل قليل الشّهرة في زمانه لما نال كتابه شهرة كبيرة وربّما ما كان في مكتبات السّلاطين والأمراء.

كما أنّ المؤرّخين الذين عاصروه أو أتوا بعده بفترة كـ**ابن خاقان** (ت529هـ) صاحب قلائد العقيان لم يشر إلى ابن بسّام و لم يترجم له، مع أنّه قد: "ألّف كتابه سنة 529هـ أي بعد عشرين سنة من تأليف الذّخيرة وشيوعه، فأخذ فصولا من الكتاب وضمّنها قلائد العقيان فاغتاظ ابن بسّام وشكاه إلى القاضي"[3].

وربّما كان عزوف الكثير من المؤرّخين عن التّرجمة له هو أنّ شهرته سبقت سيرته -كما يقال- حيث لم يكونوا بحاجة إلى التّعريف به فهو مشهور

---

1)- رايات المبرزين وغايات المميّزين، أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد الأندلسي، تحقيق محمد رضوان الدّاية، دار طلاس للدّراسات والترجمة والنشر، ط1، ص63.

2)- المصدر نفسه ، ص63.

3)- ابن بسام الأندلسي وكتاب الذخيرة، علي بن محمد، ص22.

بين أهل زمانه، لكنّنا نأخذ هذا على المؤرّخين لأنّهم حرموا الكثير من الدّارسين من تفاصيل حياته.

والذي يحيّرنا جدّا هو عدم إدراج ترجمة وافية لابن بسّام لا في كتاب الصّلة **لابن بشكوال** (ت578هـ)،ولا في كتاب بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس **للضّبي**(ت599هـ)، ولا في كتاب التّكملة لكتاب الصّلة **لابن الأبّار** (ت635هـ)، مع أنّ هذه المؤلّفات ترجمة لأدباء كثيرين عاصروا أبا الحسن أو أتوا بعده؛ فهل ما فعله هؤلاء كان عن قصد؟ وإن كان كذلك ما هو السّبب وراء هذا الإغفال والإهمال؟ لماذا غضّ هؤلاء الطّرف عن شخصية كابن بسّام؟ أسئلة كثيرة تطرح نفسها لكن لا أجوبة لدينا سوى أن نفترض بأنّ هؤلاء الأدباء كانت علاقتهم بأبي الحسن غير جيّدة لذلك حرموه من ذكره في مؤلّفاتهم، ويبقى هذا مجرّد ظنّ لا أكثر.

فحتّى **المقّري**(ت1041هـ) الذي أتى بعده بزمن لم يتحدّث عن سيرته إلاّ في إشارات خفيفة، فقال عنه:" وقال أبو الحسن علي بن بسّام الشّنتريني صاحب الذّخيرة وشهرته تغني عن ذكره ونظمه دون نثره..."[1].

ويقول في الصّفحة ذاتها: "وتأخرت وفاته إلى سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة، وهو منسوب إلى شنترين[2] من الكور الغربية البحرية من أعمال

1)- نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب، أحمد بن محمد المقّري التّلمساني، 458/3.

2)- شنترين مدينة تقع الآن في البرتغال على الشّاطئ الأيمن من نهر تاجو، وإلى الشّمال الشرقي من لشبونة على بعد67كلم،فتحها العرب مع الجنوب الغربي للجزيرة الايبيرية، سقطت من أيدي المسلمين سنة485هـ، ينظر: دائرة المعارف، م4،مادة شنترين.

بطليوس"[1]؛ فهل يعني هذا أنّ المقّري لم يجد في الكتب الأندلسية ما يؤرّخ بـه لصاحب الذّخيرة؟أو أنّ شهرته وصلت إلى القرن الحادي عشر للهجرة بحيث لم يجد داع من أن يترجم له؟ غير أنّنا وجدناه يستشهد ببعض كلامه عن الأندلس، وضمّن كتابه نفح الطّيب صفحات من مقدّمة ابن بسّام المشهورة. إلاّ أنّه حرمنا من ترجمة شافية له أو أنّه بالفعل لم يجد ما يؤرّخ به لأبي الحسن، واكتفى بذلك التّعريف القصير.

وعلى ما يبدو فإنّ تاريخ مولده كان" سنة 460هـ في بيت أصل وشرف، وهذا ما أدّى إلى ابتعاده عن الكسب المتدنيّ، وما ورثه من مال أغناه عن السّعي في الأرض بحثا عن الرّزق"[2].

وقد أثنى عليه **ابن سعيد** في كتابه فقال: "لم يكن في حساب الآداب الأندلسية أنّه سيبعث من شنترين قاصبة الغرب ومحلّ الطّعن والضّرب، من ينظمها قلائد جيد الدّهر، ويطلعها ضرائر للأنجم و الزّهر، و لم ينشأ بحضرة قرطبة ولا بحضرة إشبيلية ولا غيرها من الحواضر العظام من يمتعض امتعاضه لأعلام عصره، ويجتهد في جمع حسنات نظمه ونثره، وسل الذّخيرة فإنها تغنون عن محاسنه الغزيرة"[3]. فهذا المدح المفرط لابن بسّام يدلّ على فضل هذا الأديب على بلاده، فهو قد أفنى حياته في جمع حسنات دهره وإثبات تفوّق أهل

---

1)- المصدر السابق،3/ 458.

2/ hht//:ar:wikipidia.org/wiki

3)- المغرب في حلى المغرب، أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط3، 1955م، ص417-418

أفقه في فنّي الشّعر والنّثر، فألّف كتابه المهمّ الذّخيرة في محاسن أهـل الجزيـرة ويعني بذلك جزيرة الأندلس.

و لم يكن حظّ ابن بسّام في المؤلّفات الحديثة بأفضل حال من سـابقيها حيث قال عنه **الزّركلي:**" علي بن بسّام الشّنتريني أديب من الكتّاب الـوزراء نسبته إلى شنترين اشتهر بكتابه الذّخيرة في محاسن أهل الجزيـرة..."[1]، فهـذا الكلام يدلّ على أنّ الزّركلي لم يجد في المؤلّفات القديمة ما يشبع فضوله، سوى أنّ ابن بسّام كان كاتبا وزيرا من شنترين وأنّه صاحب الذّخيرة.

ويذكره **عمر فرّوخ** فيقول:" ابن بسّام الشّنتريني: هو أبو الحسن علي بن بسّام الشّنتريني نسبة إلى شنترين على نهر تاجه، قريبا من مصـبّه في غـربي الأندلس (البرتغال اليوم)، وقد ولد ابن بسّام في شـنترين في الأغلـب بعيـد 460هـ-1087م في أسرة غنيّة وجيهة"[2].

فهل هذا يعني أنّ سيرة ابن بسّام تبقى مجهولة لهذه الدّرجة؟ وأنّ كلّ ما يعرف عنه أنّه من شنترين وأنّه من أسرة ذات مال وجاه؟ كما أنّ الكلام نفسه نجده عند **أحمد يوسف خليفة** في قوله:

"هو علي بن بسّام الشّنتريني أبو الحسن، المتـوفّ سـنة 542هـ-1147م، ينتهي نسبه إلى التّغلبيين وجاءت ترجمته مقتضبة في أكثـر كتـب

---

1)- الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنّساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، خير الدين الزّركلي، تحقيق: عبد السلام علي، دار العلم للملايين بيروت، لبنان، ط17، 2008،266/4.

2)- تاريخ الأدب العربي: الأدب في المغرب والأندلس: عصر المرابطين والموحدين،د عمر فروّخ، ج5، دار العلم للملايين، 1997،273/3.

التّراجم، ومنها ما أهملته"[1]. فحتّى يوسف خليفة يعترف أنّ ترجمة صاحب الذّخيرة جاءت مقتضبة في معظم كتب التّراجم التي أرّخت له.

والتّرجمة ذاتها -تقريبا- يدرجها **حنّا الفاخوري** حين يقول: "هو أبو الحسن علي بن بسّام الشّنتريني، أديب من الكتّاب الوزراء، نسبته إلى شنترين في غربي الأندلس .اشتهر بكتابه "الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة" وهو في ثمانية مجلّدات تشتمل على 145 ترجمة مسهبة لأعيان الأدب والسّياسة ممّن عاصرهم أو الذين سبقوه"[2]. فهذا يعني أنّ الأخبار المتوفّرة عن سيرة ابن بسّام ضئيلة جدّا لا ترضي فضول الأدباء والمؤرّخين الذين يدرسون الأندلس.

ويلاحظ أنّ ابن بسّام لم يترجم لنفسه في كتابه بل شرع مباشرة في مقدّمته وهو بهذا قد فوّت علينا معرفة جوانب حياته، غير أنّ بعض الدّارسين حاولوا أن يستنبطوا بعض الأخبار من خلال الذّخيرة، حيث قال د. **علي بن محمّد** أنّ أصله من تغلب التي كانت ذا شأن عظيم في الجاهلية والإسلام ويستدلّ على ذلك بهذه الأبيات التي تبادلها أبو الحسن مع الوزير أبي الحكم:

يُهَنّي قُدُومَكَ كُلاًّ يَا أَبَا الحَكَم ... يَا دَوْحَةَ العِلْمِ والآدَابِ والحِكَمِ
إِنْ كُنْتَ مِنْ تَغْلَبٍ فِي بَيتٍ سُؤْدَدُهَا ... وَكُنْتَ مِنْ مُذْحِجٍ فِي السُّؤْدَدِ العِمَمِ
فَلَمْ يَضُرُّنَا ثُنَائِي النِّسْبَتَيْنِ وَقَدْ ... رُحْنَا نَسِيبَيْنِ فِي عِلْمٍ وَ فِي فَهَمِ

فراجعني بأبيات منها قوله:

---

1)- مصادر الأدب الأندلسي، أحمد يوسف خليفة، دار الوفاء لدينا للطباعة والنشر، ط1، 2002م.

2)- الموجز في الأدب العربي وتاريخه: الأدب في الأندلس والمغرب وأدب الانحطاط، حنا الفاخوري، دار الجيل، بيروت، 2003م،1424هـ،101/3.

يَا مَنْ تَنَاوَلَ حَرَّ اللَّفْظِ مِـنْ أُمَـمِ بِذِي غِرَارَيْن مِثْلَ الصَّـارِمِ الخَـدِمِ
مِنْ تَغْلَبٍ أَنْتَ فِي عَلْيَاءٍ مَرْكَزُهَـا فَمَنْ يُبَارِيكَ فِي مَجْـدٍ وَفِي كَـرَمِ
قَومٌ أَرَادَ ابْنُ هِنْـدٍ أَنْ يُضِـيمُهُمُوا فَأَوْطَأُوا الرَّاسَ مِنْهُ أَخْمَصَ القَـدَمِ
مَآثِرٌ قُسِّمَتْ بَيْنَ الـوَرَى وَغَـدَا لِلتَّغْلَبِيينَ مِنْهَا أَوْفَر القَسَـمِ..."[1]

وهذه الأبيات تدلّ على أنّ ابن بسّام تغلبي الأصل من بيت عزّ، وشرف وسؤدد، تغمره النّعمة والرّخاء.

حيـاتـه:

تُقسّم حياة ابن بسّام إلى مرحلتين: "المرحلة الأولى قبل سقوط شنترين والمرحلة الثّانية فكانت بعد سقوطها"[2]. أمّا حياته في شنترين فكانت حياة كريمة على ما يبدو فهو ولد في بيت عزّو شرف تغمره النّعمة والرّخاء ودليل ذلك قوله في الذّخيرة:" وقد كنّا غنينا هنالك بكرم الانتساب عن سوء الاكتساب، واجتزأنا بمدخور العتاد عن التّقلّب في البلاد، إلى أن نثر علينا الرّوم ذلك النّظام، ولو ترك القطا ليلا لنام"[3]. وغناه فسح له المجال ليتعلّم ويتثقف "فقد حفظ القرآن الكريم والشّريعة وأصولها الفقهية، كما اهتمّ بالأدب فأخذ يتردّد على المجالس العلمية ثمّ رحل إلى لشبونة عاصمة الغرب الأندلسي

1)- الذخيرة، 370/1 مخ بالقاهرة، نقلا عن ابن بسام الأندلسي وكتاب الذخيرة، علي بن محمد،ص26.

2)- هذا التّقسيم وضعه علي بن محمد في كتابه ابن بسّام الأندلسي وكتاب الذخيرة، دراسة في حياة الرجل وأهمّ جوانب الكتاب، و بهذا قد سهّل على الدّارسين معرفة حياة ابن بسّام بدقّة.

3)- الذخيرة، ابن بسّام، 19/1.

سنة477هـ طلبا للعلم"[1]. مثلما يذكر ذلك د.طاهرأحمد مكّي: "يغلب على الظنّ أنّه رحل إلى لشبونة طلبا للعلم وبحثا عن مجال أوسع للثّقافة، فليس يمكن أن نتصوّر غير هذا القصد هدفا"[2]. ذلك أنّ ابن بسّام كان من أسـرة غنيّـة وهذا ما جعله يرحل إلى لشبونة طلبا للمعرفة والعلم شأنه شأن أولاد طبقته.

أمّا حياته بعد سقوط شنترين إلى التحاقه بقرطبة:" فهي مرحلة تمتـدّ من(485هـ-494هـ) فقد سقطت شنترين من أيـدي المسـلمين سـنة 485هـ، واستيلاء الإسبان عليها وفرار سكّانها"[3]. وكان من بينهم ابن بسّام الذي ترك كل شيء وراءه ليتحوّل في لحظة من الغنى إلى الفقر. ويصف لنا أبو الحسن خروجه من مدينته فيقول: "وانتباذي كان من شنترين قاصـبة الغـرب مفلول الضّرب، مروّع السّرب،بعد أن استُنفذ الطّريف والتّلاد، وأتـى علـى الظّاهر والباطن النّفاذ، بتواتر طوائف الرّوم علينا في عقر ذلك الاقليم"[4]. فهذا الوصف الدّقيق لحالته وهو يخرج من شنترين مفلول الضّرب، مروّع السّـرب يخبرنا بهول الكارثة التي حلّت بمدينته التي عاش فيها عمرا طويلا.

ويبدو أنّه توجّه إلى حمص اشبيلية على حسب روايته إذ يقول: "حتّـى خلصت خلوص الزّبرقان من سراره، وفزت فوز القدح عند قماره، فوصـلت

---

1)- ينظر: ابن بسام الأندلسي وكتاب الذخيرة، علي بن محمد، ص29-30.

2)- دراسة في مصادر الأدب، طاهر أحمد مكيّ، دار الفكر العربي، ط8، 1419هـ، 1999، ص330.

3)- ينظر: ابن بسام الأندلسي وكتاب الذّخيرة، علي بن محمد، ص37-38.

4)- الذخيرة، ابن بسام 19/1.

حمص بنفس قد تقطّعت شعاعا، وذهب أكثرها التياعا. وليتني عشت منها بالذي فضلا، فتغرّبت بها سنوات أتبوّأ منها ظلّ الغمامة، وأعيا بالتّحوّل عنها عيّ الحمامة، ولا أنس إلاّ الانفراد، ولا تبلّغ ّالابفضلة الزّاد"[1]. فهذا الكلام يدلّ على أنّ أبا الحسن بعد خروجه من شنترين بمن معه بسلام، كانت وجهته إشبيلية أين عاش حياة صعبة ينتقل من مكان إلى مكان، بعد أن هجره الأصدقاء والأحباب وقلّ عنه المال، فأصبح وحيدا بلا مأوى ولا عمل ولا صاحب.

ويقول طاهرأحمد مكي:" إنّ ابن بسّام ظلّ ينتقل في البلاد التي بقيت في قبضة المسلمين بغربي الأندلس طوال أعوام ثمانية، حتى استقرّبه المقام في قرطبة سنة 494هـ"[2]. وبعد ذلك رحل إلى إشبيلية:" حيث تحّسنت أوضاعه واتّصل بوزرائها وأصبح يزوره الأصدقاء والأدباء لضمان مكان لهم في الذّخيرة الذي بدأ في تأليفه سنة 500هـ"[3].

وأغلب الظنّ أنّه قد توجّه إلى إشبيلية بعد خروجه من شنترين، ثمّ رحل إلى قرطبة ثمّ عاد مرّة أخرى إلى إشبيلية حيث تحسّنت أحواله بعد أن عكف على تأليف الكتاب واتّصاله بوزرائها.

---

1)- المصدر السابق، 1/19-20.

2)- دراسة في مصادر الأدب، طاهر أحمد مكي، ص330.

3)- ينظر: ابن بسام الأندلسي وكتاب الذخيرة، علي بن محمد،ص56.

وفـــاتـــه:

لم تختلف كتب التّاريخ كثيرا في سنة وفاة ابن بسّـــام فهـــذا المقّـــري يذكر:" أنّ وفاته تأخّرت إلى سنة اثنـــتين وأربعـــين وخمســـمائة"[1] ويـــذكر طاهرأحمد مكّي التاريخ نفسه فيقول: "إنه توفّي سنة 542هـ الموافـــق لـــ 1148م"[2]. فنحن قد توقّعنا أن يكون الحديث في كتب التّاريخ مسهبا عـــن وفاة هذا العلاّمة الكبير، بما أنّه قد اشتهر هو وكتابه الـــذّخيرة في الأنـــدلس و المشرق على السّواء، وأن تكون قصائد رثائه كثيرة بصفته واحدا من الكتّـــاب الوزراء الذين خدموا الأندلس، لكن لاشيء من هذا حدث فحتّى الحديث عن وفاته كان مختصرا جدّا وكأنّ المتوفّى واحد من عامّة النّاس لا كاتبا من الأدباء الكبار الذين أنجبتهم الأندلس.

مـــؤلّفـــاتـــه:

أمّا مؤلّفاته فلا نعرف له كتابا آخر غير الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة لكنّه ذكر بعض مؤلّفاته في الكتاب في سياق حديثه عن ابن وهبون:" فجمعت شعره(يعني ابن وهبون) على حروف المعجم في تصنيف ترجمته بكتاب" الإكليل المشتمل على شعر عبد الجليل، وجمعت في تأليف ترجمته بـــ:"سلك الجواهر من نوادر ترسيل ابن طاهر" وفي تصنيف(كذا) وسمته "بكتاب الاعتماد على ما صحّ

1)- نفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب، المقّري، 458/3.

2)- دراسة في مصادر الأدب، د. طاهر أحمد مكّي، ص329.

من أشعار المعتمد بن عبّاد"، وفي كتاب آخر ترجمته" بنخبة الاختيار من أشعار ذي الوزارتين أبي بكر بن عمّار"([1]) لكنّها لم تصل إلينا ومنها:

أوّلا: الاعتماد على ما صحّ من شعر المعتمد بن عبّاد([2]).

ثانيا: الإكليل المشتمل على شعر عبد الجليل.([3])

ثالثا: سلك الجواهر من ترسيل ابن طاهر.([4])

رابعا: نخبة الاختيار من أشعار ذي الـوزارتين أبي بكـر بـن عمّار.([5])

فكلّ هذه المؤلّفات كانت تدور حول المعتمد ووزرائه، وهذا دليل على المكانة الاجتماعية التي كان يحظى بها ابن بسّام في بلاده.

2- قراءة في كتاب الدّخيرة:

هو الكتاب الأهمّ الذي اشتهر به والذي وصل إلينا من بين مؤلّفاتـه وقد ألّفه سنة 500هـ-كما سبقت الإشارة إلى ذلك- وهذا بحسب ما جـاء في معرض حديثه عن أبي بكر بن الملح[6] حيث يقول:" ومدّ لأبي بكر هـذا في العمر وعاش إلى وقت تحريري هذا المجموع سنة خمسمائة"[7]. لكن ربّما كانت

---

[1]) الذخيرة، ابن بسّام،303/2.

[2])المصدر نفسه، 81/2.

[3]) المصدر نفسه،488/2.

[4]) المصدر نفسه،488/2.

[5]) المصدر نفسه،488/2.

6)- أبو بكر بن الملح: هو أبو بكر بن اسحاق اللّخمي، من أهل شلب يعرف بابن الملح وابن الملاح، كان له ابنان هما أبو القاسم أحمد وأبو محمد عبد الملك وقد رويا عنه.(ينظر: الذخيرة، 452/1.

7)- نفسه المصدر، 1/ 452.

فكرة تأليفه تراوده قبل هذا وفي مؤلّفه ما يدلّ على ذلك، ومنها قوله في الفصل الخاص بالأديب أبي جعفر أحمد بن الدّودين البلنسي: "هو أحد من لقيته وشافهته وأملى عليّ نظمه ونثره بلشبونة سنة سبع وسبعين...[1] وقوله في القسم الثّاني من الذّخيرة: "ومن الحَسن في تشبيه الخيل بالبحر قول بعض أهل العصر وهو الأديب أبو بكر بن العطّار اليابسي[2] من شعر أنشدنيه لنفسه ببطليوس سنة ستّ وثمانين"[3]. فهذا الكلام يؤكّد أنّ أبا الحسن كان يجمع مادّة مادّة كتابه قبل سنة خمسمائة للهجرة، أي قبل أن يخرجه لنا في صورته النّهائية.

والكتاب قسّمه صاحبه إلى أربعة فصول كما فعل **الثّعالبي** في اليتيمة **فالقسم الأوّل** يحتوي على أربعة وثلاثين أديبا وشاعرا من شعراء ووزراء قرطبة وما يصاقبها من بلاد متوسّطة الأندلس، ثمّ **القسم الثّاني** ذكر فيه ابن بسّام ستة وأربعين أديبا وشاعرا ووزيرا لأهل الجانب الغربي من الأندلس، وأهل إشبيلية، أمّا **القسم الثّالث** فكان للجانب الشّرقي من الأندلس، وأخيرا **القسم الرّابع** فقد خصّصه لمن طرأ على جزيرة الأندلس من إفريقية والشّام والعراق.

ويظهر أنّ ابن بسّام كان يجمع مادّة كتابه في قرطبة سنة 494هـ أمّا سنة فراغه من تأليفه فكان على الأرجح في " أواخر سنة503هـ، وربّما قد

1)- المصدر السابق، 703/3.

2)- ابن العطّار اليابسي: هو أحمد بن عبد الله بن العبّاس عمّ أبي بكر الصّولي وهو من شعراء الأنموذج ينظر:الذخيرة 376/4.

3)- الذخيرة، ابن بسّام 464/2-465.

استغرق أربع سنوات"[1] وهي مدّة كافية ليجمع فيها ذلك القدر الهائل من الشّعراء، و الأخبار وإدلاء برأيه – أحيانا– في بعض القضايا.

أ/دواعي تأليف الكتاب:

يبدو أنّ الفكرة التي قام عليها كتاب الذّخيرة هي: "إفهام الأندلسيين أنّ لديهم موروثا أدبيا غزيرا يستحقّ أن يعتزّوا به ويفاخروا سواهم"[2] لذلك كان يباهي المشارقة بأدب الأندلسيين في أكثر من موضع من الذّخيرة. وفي الوقت نفسه يعاتب أهل بلده على السّعي وراء الآداب المشرقية فيقول: " مازال في أفقنا هذا الأندلسي القصيّ إلى وقتنا هذا، من فرسان الفنّيين وأئمّة النّوعين قوم هم ما هم طيب مكاسر، وصفاء جواهر، وعذوبة موارد ومصادر، لعبوا بأطراف الكلام المشقّق، لعب الدّجى بجفون المؤرّق، وحدوا بفنون السّحر المنمّق حذاء الأعشى ببنات المحلّق، فصبّوا على قوالب النّجوم غرائب المنثور والمنظوم، وباهوا غرر الضّحى والأصائل بعجائب الأشعار والرّسائل، نثر لو رآه البديع لنسي اسمه، واجتلاه ابن هلال لولاّه حكمه، ونظم لو سمعه كُثير ما نسب ولا مدح، أو تتبّعه جرول ما عوى ولا نبح، إلاّ أنّ أهل الأفق أبوا إلاّ متابعة أهل المشرق[3]. فهو يذكر تفوّق الأندلسيين في مجال الأدب بنوعيه لكنّهم يهملون تراثهم ويلهثون وراء الآداب المشرقية، ويقول في موضع آخر من

---

1)- ينظر: ابن بسّام الأندلسي وكتاب الذّخيرة، علي بن محمد:ص135.

2)- تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطّوائف و المرابطين،د إحسان عبّاس، دار الشّروق، 1997، ص78.

3)- الذخيرة، ابن بسّام 1/ 11-12.

الكتاب في معرض حديثه عن **المستعين بالله أبي أيوّب سليمان بن الحكم**(ت408هـ): "...وهو أحد من شرف الشّعر باسمه وتصرّف على حكمه، مع قعود همم أهل الأندلس يومئذ عن البحث عن مناقب عظمائهم، وزهدهم في الإشارة بمراتب زعمائهم"[1]. فهو يعود دائما إلى لوم أبناء وطنه عن السّعي وراء المشارقة وأدبهم.

ويقوم كتاب الذّخيرة على مذهبين نقديين كلاهما يتّصل **بابن حزم** (ت456هـ) **أحدهما:** " الدّفاع عن تراث الأندلس الأدبي و**الثّاني** النّظرة الأخلاقية في الحكم على بعض الفنون الشّعرية"[2] وغيرته على أدب بلاده وملاحظته على الشّعراء الذين أهملوا أدبهم وراحوا يتهافتون على أدب المشارقة. وبالإضافة إلى ذلك ضمّن كتابه أجود المقطوعات الشّعرية والنّثرية وأروع ما جادت به القريحة الأندلسية فيقول: "وقد أودعت هذا الدّيوان الذي سمّيته بكتاب "الذّخيرة في محاسن أهل هذه الجزيرة"، من عجائب علمهم، وغرائب نثرهم ونظمهم، ما هو أحلى من مناجاة الأحبّة بين التّمتّع والرّقبة، وأشفى من معاطاة العقار على نغمات المثاليب والأزيار"[3]، فهو دائما يعود إلى معاتبة أهل بلاده عن هجر آدابهم واللّهث وراء الآداب المشرقية كلّما سنحت له الفرصة.

ويذكر ابن بسّام السّبب الذي جعله يؤلّف الكتاب فيقول:" فغاظني منهم ذلك وألّفت ممّا هنالك، وأخذت بجمع ما وجدت من حسنات دهري

---

1)- المصدر السابق، 46/2.

2)- تاريخ النّقد الأدبي عند العرب: نقد الشّعر من ق2هالى ق8هـ إحسان عبّاس، ص509.

3)- الذّخيرة، ابن بسّام 14/1.

وتتبّع محاسن أهل بلدي وعصري، غيرة على ذلك الأفق الغريب أن تعود بذوره أهلّة، وتصبح بحـــاره ثمادا مضمحلّة، مع كثرة أدبائه ووفور علمائـــه..."[1]، فأبو الحسن أحزنه ما آل إليه وضع الأدب في الأندلس، فنهض لجمـــع شـــعر الشّعراء ونثر الكتّاب قبل أن يأتي زمن تختفي فيه تلك النّجوم وتجفّ فيه تلـــك البحار مع وفور الأدباء والفقهاء.

ويصف لنا ابن بسّام حالته النّفسية وقت تأليف الذّخيرة فيقول:" وعلم الله أن هذا الكتاب لم يصدر إلاّ عن صدر مكلوم الأحناء، وفكر خامد الذّكاء بين دهر متلوّن تلوّن الحرباء"[2]. فهذا يعني أنّ أبا الحسن كان في حالة نفســـية سيّئة عندما كان يؤلّف الذّخيرة، فهو قد أُخرج من شنترين وتغرّب في قرطبة، وأنكره الصّاحب والحبيب، وقلّ عنه المال، ومع ذلك أخرج الكتاب في أبهـــى صورة، وكأنّ تلك الظّروف القاسية لم تؤثر في قريحته ولا في همّته، غـــير أنّـــه أطلعنا على تلك الأحداث التي مرّ بها بدقّة متناهية؛ جعلت كلّ من يقرأ الذّخيرة يحسّ ما أحسّه ابن بسّام في تلك الفترة الصّعبة.

ب/عنوان الكتاب:

إنّ العنوان الذي اختاره ابن بسّام لمؤلّفه هو "الذّخيرة في محاسن أهـــل هذه الجزيرة" وهو العنوان الأصلي للكتاب ويدلّ على ذلك قوله في المقدّمـــة:" وقد أودعت هذا الدّيوان الذي سمّيته بكتاب الذّخيرة في محاسن أهل هذه الجزيرة

---

1)-المصدر السابق، 12/1.

2)- المصدر نفسه، 19/1.

من عجائب علمهم وغرائب نثرهم ونظمهم"[1]. لكن كلمة "هذه" أسقطتها لجنة التّحقيق بجامعة القاهرة بطلب من طه حسين وكان أحد أعضائها، "بحجّة أنّ الإشارة كانت تعني شيئا أيّام ابن بسّام عندما كانت الأندلس تحت الحكم الإسلامي أمّا الآن فلا معنى لها"([2]).

وصدرت جميع الأجزاء التي حقّقتها جامعة القاهرة تحت عنوان "الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة"[3]، والعنوان لم يكن مصادفة بل كان دقيقا جدّا يتناسب مع محتوى الكتاب "...فهو ربّما قصد به أنّ كلمة محاسن جِيد النّظم والنّثر وبين المكان بعض الضّياع، وليس محاسن الأحداث والزّمن. إذ كلّ ماجمعه عن أهل الجزيرة من أخبار لم يكن كلّه محاسن بل تضمّن نكبات ومحنا وفتنا.."[4]، فالعنوان حقّا كان ملائما للكتاب، لأنّ ابن بسّام اختصّ به جزيرة الأندلس من دون سواها وإن كان قد ذكر بعض أدباء إفريقية والشّام والعراق.

أمّا دلالته المعجمية: "فالذّخيرة من ذخر يذخر ذخرا بمعنى استبق الشّيء واذّخره لوقت الحاجة، فالذّخيرة هي اسم مفعول جاء على صيغة فعيل وهي مشهورة وكثيرة في العربية وتدلّ على الشّيء المذّخر أو المذخور ويكون من الأشياء التي تُصفّ فلا تُخرج إلاّ في الظّروف الاستثنائية"[5] وكلمة "محاسن" من

---

1)- المصدر السابق، 14/1.

2)ابن بسّام الأندلسي وكتاب الذّخيرة، علي بن محمد، ص127.

3)- ينظر:المرجع نفسه، ص127.

4)- مصادر الأدب الأندلسي،د. أحمد يوسف خليفة، ص59.

5)- ابن بسّام الأندلسي وكتاب الذّخيرة، د.علي بن محمد، ص128-129.

الحسن والكمال وهنا تعني محاسن تأليفهم وحسن صياغتهم، أمّا "هذه" فـتعني معاني التّعظيم والإجلال للجزيرة قدرا كبيرا لا يفهم إلاّ بها"[1] وأضاف كلمة أهل الجزيرة أي أنّه قصد جزيرة الأندلس.

وقد طُرحت تساؤلات كثيرة عمّا إذا كان ابن بسّام هو الذي صاغ الكتاب؟ أم أنّه أملاه على تلامذته؟ أو أنّه كان عبارة عن محاضرات جمعها طلاّبه بعد وفاته؟

وهذه القضيّة أثارها **د. طاهر أحمد مكّي** عندما قال إنّه: "تبقى مشكلة تتّصل بكتاب الذّخيرة هل ألّف ابن بسّام الكتاب بنفسه أم كان إملاء منه لتلامذته؟ هل أكمله في حياته وأعطاه الطّابع الذي وصلنا به؟ أم تركه فصولا معدّة تولىّ أحد من بعده إعدادها وترتيبها؟"[2] ثم يجيب عن هذا التّساؤل بقوله: "يبدو لي أنّ الكتاب في صورته الأخيرة ليس من صنع الرّجل وإن أطلق عليه في تضاعيف كلامه اسم مؤلّف ومجموع وكتاب"[3]. ويذكر طاهرأحمد مكّي الأسباب التي جعلته يشكّك في أنّ أبا الحسن هو الذي أعطى الصّيغة النّهائية لكتابه فيقول: "فهو -أي المؤلّف- يبدأ فقراته بقوله: قال أبو الحسن، أو قال ابن بسّام يشير إلى نفسه ، وهي طريقة لم تكن معروفة في عصره فلا تجدها مثلا عند معاصره الفتح بن خاقان(ت529هـ)، ولا في كتب الكثرة الغالبة من

1)-المرجع السابق، ص129.

2)- دراسة في مصادر الأدب،د. طاهر مكّي، ص357.

3)- االمرجع نفسه، ص357.

كتب التّراث التي وصلت إلينا"[1]. مستثنيا من ذلك كتاب **ابن القوطية** (ت367هـ) "تاريخ افتتاح الأندلس"الذي قال عنه:"إنّه محاضرات أملاها المؤلّف على طلاّبه وقاموا هم بجمعها من بعده وصنعوا منها كتابا"[2]، ويقول: "لماذا لا يكون الأمر كذلك في كتاب ابن بسّام؟ ثمّ يجيب أنّ ابن بسّام لم يعرف عنه أنّه اشتغل بالتّدريس في حياته، وأنّ أسلوب الذّخيرة وما فيه من سجع وصنعة لا يأتيان إلاّ بإعمال التّفكير الطّويل"[3]، ثمّ يصل طاهرأحمد مكّي إلى نتيجة مفادها أنّه: "لم يبق غير الظنّ بأنّ الرّجل ترك الكتاب فصولا معدّة وأنّ غيره قام بإعدادها وأضاف إلى الكتاب ما أراد"[4].

ج/شهرة الكتاب:

يبدو أنّ كتاب الذّخيرة قد لاقى رواجا كبيرا في الأندلس وحظوة عند الملوك والأمراء حتّى جعلوه في رفوف مكتباتهم، لأنّه تحفة ضمّت الشّعر والنّثر والتّاريخ والنّقد وبعض الأخبار النّادرة. ويفتخر ابن بسّام بهذا النّجاح الباهر فيقول:" ولمّا سئلت أيضا استنساخ هذا الدّيوان ورأيت شره أهل الزّمان إلى الإقتباس من نوره بما يلتقطونه من شذوره، أحببت أن يجوب الآفاق وتسير به

1)- المرجع السابق، ص357.

2)- المرجع نفسه، ص357.

3)- المرجع نفسه،، ص357.

4)- المرجع نفسه ، ص357.

الرّفاق..."[1]، فالكتاب قد حظي باستحسان المشارقة والأندلسيين على السّواء فنهض بعضهم لدراسته والاقتباس من نوره بما يستخلصونه من عيون الأخبـــار والشّعر.

ولعلّ شهرة الكتاب الكبيرة هي التي دفعت بالكثير مـــن الأدبـــاء إلى اختصاره "**فابن مماتي**[2] الذي أعجب به قد" اختصره نظرا للمعلومات الهائلة التي تضمنّها، وتدخّلات ابن بسّام في كلّ مرّة في كتاب سمّاه "لطـــائف الـــذّخيرة" وذكر الأسباب التي دفعته إلى اختصار الذّخيرة في مقدّمة الكتاب"[3].

وعليه فإنّ للكتاب قيمة كبيرة سواء من حيث المضمون أم من حيـــث الشّكل لذلك لقي كلّ هذا الاهتمام من طرف الباحثين العرب أو المستشرقين:" الذين استفادوا منه استفادة جمّة في كتاباتهم عن بلاد الأندلس[4]. أمّا الكتّـــاب العرب الذين اهتمّوا بالدّراسات المغربية أو الأندلسية أو بالنّقد فقد أجلّوه لما فيه من معلومات جمّة.

---

1)- الذّخيرة، ابن بسّام، 22/1.

2)- ابن مماتي: هو أبو المكارم الأسعد بن مهذّب الملقّب بالخطير أبي سعيد بن مينا بن زكرياء بن مماتي. ولد بمصر سنة 544هـــ(1149م) وكان نصرانيا فأسلم هو وجماعة من أهله في ابتداء الدولة الصلاحية وكان ناظر الدواوين المصرية. عن الأعلام 295/1، نقلا عن ابن بسام الأندلسي وكتاب الذّخيرة، علي بن محمد، ص173.

3)- ينظر: نفسه المرجع، ص174-175.

4)- المرجع نفسه، ص178.

د/مصادر ابن بسّام في تأليف الذّخيرة:

يبدوأنّ ابن بسّام اعتمد على بعض المصادر في تأليف الذّخيرة خاصّة في بعض التّراجم وأخبار التّاريخ ويذكر بعضها في ثنايا الكتاب، ولعلّ المصدر المهمّ الذي اعتمد عليه أبو الحسن كثيرا هو تاريخ **ابن حيّان** (ت469هـ) يقول: "وعوّلت في معظم ذلك على تاريخ أبي مروان بن حيّان، فأوردت فصوله ونقلت جمله وتفاصيله[1]. وكتاب **الثّعالبي** (ت429هـ) يتيمة الدّهر: "ولمّا ذكرت هؤلاء ائتساء بأبي منصور في تأليفه المشهور، المترجم بـ{يتيمة الدّهر في محاسن أهل العصر}"[2]، وكتاب **ابن رشيق**(ت363هـ) وكتاب **ابن حزم**(ت456هـ) نقط العروس، وكتاب **الحميري** (ت610هـ) يقول في الفصل الذي عقده للأديب **أبي الحسن الاستجي**[3] قال: "أنشد له في كتابه المسمّى البديع في وصف الربيع قال أنشدني أبو الحسن الاستجي لنفسه..."[4] بالإضافة إلى المصادر الشّفوية كقوله: أنشدني فلان، أخبرني فلان...

هـ/منهج الكتاب:

المنهج هو الطّريق أو السّبيل الذي ينتهجه مؤلّف ما في كتابه، وهو مهمّ لكلّ كاتب مهما كان الموضوع الذي يتناوله، لذلك أعطى ابن بسّام للمنهج

---

1)- الذّخيرة، ابن بسّام، 19/1.

2)- المصدرهسد فى،32/1.

3)- أبو الحسن الاستجي: هو علي بن عبد الله بن علي المعروف بالاستجي كان فقيها نحويا من أهل قرطبة، وسكن اشبيلية. ينظر: الذخيرة، ابن بسام، 200/1.

4)- الذخيرة، ابن بسام، 200/1.

قيمة كبيرة سهّلت عليه عملية الجمع والتّصنيف، والمنهج الذي اعتمده ابن بسّام في تأليف الذّخيرة كان منهجا سليما، وافق طريقة تأليف الكتاب.

ولم يستعرض ابن بسّام كلّ ما أنتجه الأندلسيون، وإنّما اختار عصرا أندلسيا محدّدا وهو يدرك جيّدا لما فعل ذلك، ويعلّل بحجّة مقنعة فيقول: "ولم أعرض لشيء من أشعار الدّولة المروانية ولا المدائح العامرية، إذ كان **ابن فرج الجيّاني** (ت 399هـ) قد رأى رأيي في النّصفة، وذهب مذهبي في الأنفة؛ فأملى في محاسن أهل زمانه كتاب الحدائق معارضا لكتاب الزّهرة للأصبهاني، فأضربت أنا عمّا ألّف ولم أعرض لشيء ممّا صنّف"[1]. فهو لم يرد أن يكرّر ما ألّفه سابقوه، إنّما أراد أن يذكر الأدب بكلّ أشكاله وأعلامه، وأن يختصّ بذلك أهل زمانه.

وقد حدّد الفترة الزّمنية لذلك بالمائة الخامسة للهجرة. فيقول: "...واعتمدت المائة الخامسة من الهجرة، فشرحت بعض محنها وجلوت وجوه فتنها، ولخّصت القول بين قبيحها وحسنها"[2]. ويبدو أنّه اشترط على نفسه الأدباء الذين عاصروه: "ولا تعدّيت أهل عصري ممّن شاهدته بعمري أو لحقه بعض أهل دهري"[3].

ونفهم من كلامه أنّه لم يخرج عن الإطار الزّمني الذي حدّده لكتابه ولا عن أعلامه حيث كان واضحا جدّا في ذلك، وهذا ما سهّل عليه عملية البحث

---

1)- المصدر السابق، 13/1.

2)- المصدر نفسه، 17/1.

3)- المصدر نفسه، 13/1.

والتّسجيل وذكر التّواريخ بدقّة متناهية، وكلّ من تناولوا كتاب الذّخيرة بالدّراسة "أجمعوا على أنّ ابن بسّام قد التزم بالإطار الزّمني الذي وضعه لنفسه بطريقة منهجية مذهلة"[1]. ويعلّق د. علي بن محمد على منهج ابن بسّام فيقول: "وهو وإن كان قد اختار من ناحية أخرى أن يمزج بين الجدّ والهزل -كما قال- وأن ينقاد في كثير من الأحيان إلى الاستطراد، فإنّه أخلص للمبدأ الذي اتّخذه لنفسه، حيث استطاع أن يلتزم بالحديث عن الأدباء الذين عاشوا في المائة الخامسة للهجرة، دون سواهم قد كان له بمثابة العلامة البارزة على جانبي الطّريق تردّه إليها كلّما دعته المغريات -وما أكثرها- إلى الابتعاد عنها"[2]. ود.علي بن محمد محقّ فيما قال، لأنّ ابن بسّام كان وفيّا للمنهج الذي فرضه لنفسه، و لم يخرج عن الإطار الزّمني الذي حدّده على الرّغم من كثرة الاستطرادات والتّعليقات التي صدرت عنه.

أمّا تحديده للإطار المكاني الذي حصر فيه كتابه، فكانت بلاد الأندلس ومما سهّل عليه مهمّته" تقسيمه للجزيرة الايبيرية إلى ثلاث أقسام وهي:

أوّلها قرطبة وما يصاقبها من بلاد الأندلس، **ثانيها** الجانب الغربي من الأندلس وأهل حضرة إشبيلية، وما اتّصل بها من بلاد ساحل البحر المحيط الرّومي، **ثالثها** الجانب الشّرقي من الأندلس"[3]، وخصّص لكلّ قسم جزءا

---

1)- ينظر: ينظر ابن بسام وكتاب الذخيرة دراسة في حياة الرجل وأهمّ جوانب الكتاب،د علي بن محمد، ص206.

2)- المرجع نفسه، ص207.

3)المرجع نفسه، ص210.

خاصا به من أقسام كتابه الثلاثة، أمّا القسم **الرّابع** فقد أفرده لمن طـرأ علـى جزيرة الأندلس في تلك الفترة لمحدّدة.

كما أنّ ابن بسّام لم يهمل قضيّة ترتيب المترجم لهم، معتمدا في ذلـك على طريقة واضحة ذكرها في مقدّمة الكتاب إذ يقول:" وبدأت بذكر الكتّاب إذ هم صدور في أهل الآداب، إلا أن يكون له حظّ من الرّياسة، أو يـدعو إلى تقديمه بعض السّياسة"[1].

ويبدو أنّه لم يتّبع التّرتيب الألف بائي، أو سنة الوفاة بل بـدأ بطبقـة الكتّاب، وهم على ما يبدو يمثّلون طبقة رفيعة وأجلّ شأنا من طبقة الشّعراء لكنّه يستثني طبقة رجال السّياسة.ثمّ يفصّل في منهجه فيقول:" فأوّل من ذكرت من أهل قرطبة من كان بها من ملوك قريش في المدّة المؤرّخة من أهل هذا الشأن، ثمّ من تقلّق بسلطانهم أو دخل في شيء من شأنهم وتلوهم بالكتّـاب والـوزراء والشّعراء ثمّ بطوائف من المقلّين منهم"[2]، فأوّل من ذكرهم أهل قرطبة لتقدّمهم وتفوّقهم في الأدب، وبدأ بذكر ملوك قريش وأعيانها، ومقياس ذلك عنده هـو جودة الفكر ويتجلىّ ذلك في قوله: "وقد أذكر الرّجل لنباهة فكره لا لجـودة شعره، وأقدّم الآخر لاشتهار إحسانه مع تأخّر زمانه[3].

1)- الذخيرة، ابن بسام، 18/1.

2)- المصدر نفسه، 32/1

3)- المصدر نفسه، 32/1.

كما أنّه قد استبعد المقياس الزّمني "و لم يعتمده إلاّ في الفصل الخـاصّ بأدباء بلاد بطليوس وسائر البحر الرّومي"[1]. ويعلّل ابن بسّام ذلـك بقولـه: "فلنذكر الآخر من نشأ من أرباب المنثور والمنظوم بعقر هذا الإقليم ولنقدّم منهم من تقدّم في الزّمان"[2].

والواضح أنّ ابن بسّام لم يستطع الإحاطة بكلّ الأدباء والشّعراء الذين عاصروه أو الذين لم يعاصرهم، فهو يقول في هذا الصّدد:" وكم من شعرائنا ممّن عاصرني لم أسمع بذكره، ولا وقع إليّ شيء من شعره، ولعلّه كان أخلـق بـأن يُذكر، وأحقّ بأن ننتقي آياته وتسطر، لكن يبلغ المرء جهـده، والإحاطـة لله وحده"[3]، ويقول في موضع آخر من الكتاب:" ولقد فاتني كثير من الكتّـاب والوزراء، وجملة من أعيان الشّعراء ممّن كان في ذلك التّاريخ منهم من لم أسمـع بذكره، ومنهم من لم يسمح لي نقدي بإثبات ما بلغني من شعره"[4].

وقد أثار د.طاهرأحمد مكّي نقطة هامّة تتعلّق بمسألة ترتيـب التّـراجم حيث قال عن ابن بسّام: "إنّه ربّما كان وحيد عصره في وضع فهرس مفصّـل لأقسام الكتاب الأربعة، والمترجم لهم في كلّ قسم[5] ويعلّق د. علي بن محمـد على ذلك فيقول: "ولقد أصاب طاهر أحمد مكّي بالفعل عندما لاحظ أنّ ابـن

---

1)- ينظر: ابن بسام وكتاب الذّخيرة، دراسة في حياة الرجل وأعمّ جوانب الكتاب،د .علي بن محمد، ص218.

2)- الذّخيرة، ابن بسّام، 39/1.

3)-المصدر نفسه ، 8/1.

4)- المصدر نفسه،12/1-13

5)- ينظر: دراسة في مصادر الأدب،د. طاهر أحمد مكّي، ص340.

بسّام كان وحيد عصره في هذا الصّنيع، ذلك أنّه لم تجر العادة لدى أصحاب هذا النّوع من الكتب، بتحرير فهارس على هذه الدّرجة من الدقّة والتفصيل وتشتمل على تسمية كلّ الأدباء المترجم لهم واحدا واحدا، حسب الإقليم الجغرافي الذي ينتسبون إليه وجزء الكتاب الذي ورد ذكرهم فيه"[1].

أما فيما يتعلّق بتعريف الأدباء فيبدو أنّه: "لم يشر إلى هذا الجانب من منهج كتابه في المقدمة، فلقد ذكر الكثير من المسائل التي تحدّثنا عنها ولكنّه عندما جاء إلى ذكر النّماذج الأدبية التي سيضمّنها كتابه، توقّعنا أن نراه يذكر خطّته في التّعريف بأصحابها؛ رأيناه ينحرف بالكلام، ويشرع في الحديث عن مسائل أخرى، ولعلّ الإشارة الوحيدة التي تتّصل بأخبار الأدباء"[2] هي التي جاءت في كلامه حين قال: "على أنّ عامّة من ذكرته في هذا الدّيوان، لم أجد له أخبارا موضوعة، ولا أشعارا مجموعة"[3].

وبالإضافة إلى ذلك اعتمد على بعض النّقط في التّعريف بالأدباء والتّرجمة لهم ومنها"الحرص على الإشارة إلى الألقاب الرسمية والعلمية، كقوله في ترجمته **لأبي محمد بن أحمد بن دراج القسطلي**، وأيضا الوزير الكاتب **أبي حفص بن بردالأكبر**... والأمثلة كثيرة في الكتاب، كذلك ذكر الوظائف الرّسمية التي تقلّدها الأديب، كما ذكر المحن التي أصابت الأدباء المقرّبين من الأمراء؛ أيضا

---

1)- ابن بسام وكتاب الذخيرة، دراسة في حياة الرجل وأهمّ جوانب الكتاب،د.علي بن محمد، ص222.

2)- المرجع نفسه، ص223.

3)- الذخيرة، ابن بسام، 16/1.

التّنبيه على بيوتات الأدب الأندلسية، والتّنبيه على براعة الأديب مع حداثة السنّ،والإشارة إلى حدوث الوفاة في سنّ مبكّرة، والتّقويم العلمي والأخلاقي في سياق التّرجمة، والثّناء والذمّ في تراجم الأدباء"[1].

ويعدّ ابن بسّام البديع مقياسا للتّفاضل بين الأدباء، وأهمّ معيار الجودة والإحسان لذلك لا نجد الأمر غريبا حين يهتمّ به ويوليه عنايته فيقول:" وهذا الدّيوان هو لسان منظوم ومنثور، لا ميدان بيان و تفسير... لكن ربّما ألممت ببعض القول بين ذكر أجريه ووجه عذراء أريه، لاسيما البديع ذي المحاسن"[2] فهو بهذا يجعل البديع من أولوياته. ويقول في موضع آخر:" وعلى ذلك فقد وعدت أن ألمع في هذا المجموع بلمع من البديع وأن أمهّد جانبا من أسبابه، وأشرح جملا من أسمائه وألقابه"[3]، ونجد ابن بسّام يضع البديع في خانة العلوم حين يقول: "وحقائق العلوم أولى بنا من أباطيل المنظوم والمنثور، وعلى ذلك فقد وعدت أن ألمع في هذا المجموع بلمع من ذكر البديع..."[4].

أمّا قضيّة تتبّعه للمعاني فقد كانت في صميم المنهج الذي وضعه في تأليف كتابه وقد ذكره في مقدّمة الدّيوان إذ يقول: "وإذا ظفرت بمعنى حسن، أو وقفت على لفظ مستحسن، ذكرت من سبق إليه، وأشرت إلى من نقص

---

1)- ينظر: ابن بسام الأندلسي وكتاب الذخيرة، دراسة في حياة الرجل وأهم جوانب الكتاب، د.علي بن محمد، ص225.

2)- الذخيرة، ابن بسام، 16/1.

3)- المصدر نفسه، 18/1.

4)- المصدر، نفسه، 18/1.

عنه، أو زاد عليه؛ ولست أقول: أخذ هذا من هذا قولا مطلقا، فقد تتوارد الخواطر، ويقع الحافر حيث الحافر؛ إذ الشّعر ميدان والشّعراء فرسان"[1]، وهو يقصد هنا الأخذ أو السّرقة كما تسمّى ويبدو أنّه يفضّل الأخذ الذي يزيد عليه الشاّعر أو ينقص منه، ولا يراها ابن بسّام عيبا فقد تتوارد الخواطر وتتشابه.

وتحدّث أبو الحسن في مقدّمته عن مسالة تفسير المعاني، وحدّد موقفه منها بكلّ صراحة، ويظهر ذلك في قوله: "وهذا الدّيوان إنّما هو لسان منظوم ومنثور، لا ميدان بيان وتفسير، أورد الأخبار لا أفكّ مُعمَّاها، في شيء من لفظها ولا معناها"[2]، وهو بهذا كان يحافظ على المقطوعات الشّعرية والنّثرية التي كان يضمّنها الذّخيرة دون شرحها أو تفسيرها، لكنّه كان مجبرا في بعض الأحيان على شرح بعض الألفاظ.

ويبدو أنّه قد اطّلع على كتاب "يتيمة الدّهر" للثّعالبي ، وتنبّه إلى خلوّه من تاريخ أو مناسبة، وذلك ما دفعه إلى الاهتمام بالتّاريخ والمناسبة؛ سواء في النّثر أم الشّعر، فنجده يقول:" وتخلّلت ما ضمّنته من الرّسائل والأشعار بما اتّصلت به أو قيلت فيه"[3]، ويذكر بعض الحوادث التّاريخية التي حصلت في زمانه ، والحروب التي دارت رحاها في الأندلس؛ فنراه يصف كلّ ذلك بشيء من الحسرة والحزن، وكان يورد الشّعر الرّديء لتعلّقه ببيت مهمّ وهنا تظهر عنايته الكبيرة بالمنهج الذي رسمه لنفسه في هذه المسالة يقول:" وأذكر الشّاعر الخامل، أنشد الشّعر

---

1)- المصدر السابق، 1/18-19.

2)- المصدر نفسه، 1/16.

3)- المصدر نفسه، 1/17.

النّازل لا ربّ أمر يتعلّق به أو لخبر أذكره لسببه"[1]؛ ويصل الأمر به إلى تكرار اهتمامه بالأخبار فما كاد يفرغ من ذكرها في مقدّمته؛ حتّى عاد إليها في القسم الأوّل المخصّص لقرطبة وما يصاقبها فيقول: "وقد عدت في صدر هذا الكتاب، بأن أتخلّل أشعار الشّعراء ورسائل الكتّاب والوزراء، بما عسى أن يتعلّق بأذيالها ويساير أفياء ظلالها، من أنباء فتن ذلك الزّمان البعيد، كان طلقها المفرّق لشمل الأمر في هذه الجزيرة، تسقها وتلمع بنبذة من مشهور وقائعها ونشر بأسمائها طوائف توابعها وزوابعها...ليجمع هذا المجموع بين الماء والزّهر، والزّمان بين الأصائل والبكر"[2].

ومن الواضح أنّ ذكر ابن بسّام لتلك الأخبار والحوادث كان اجتهادا منه، فمن خلال الذّخيرة وضعنا في صورة المجتمع الأندلسي السّياسية والاجتماعية والتّاريخية، والأدبية، ويبدو أنّ اهتمام أبا الحسن بالجانب التّاريخي كان خاصّا، لأنّه عاشه وقاس همومه بدءا من سقوط شنترين وخروجه منها واستيلاء الإسبان على الأندلس و الفتن التي كانت في ذلك الوقت، والحوادث كلّها كانت محفورة في ذاكرته، حيث لا يفوّت فرصة إلاّ ويذكر لنا حدثا تاريخيا، يقول: "واعتمدت المائة الخامسة للهجرة، فشرحت بعض محنها وجلوت فتنها ولخّصت القول بين قبيحها وحسنها"[3].

---

1)- المصدر السابق، 32/1.

2)- المصدر نفسه، 34/1.

3)- المصدر نفسه ، 17/1.

و لم يغفل ابن بسّام عن ذكر المعارك التي انتصر فيها المسلمون، فمن خلال وصفه تحسّ بفخره الشّديد بهذه الأمجاد: "وسينخرط في سلك ما أوشّح به هذا التّصنيف من تلخيص التّعريف بأخبار ملوك الجزيرة، وسرد قصصهم المأثورة، ووقائعهم المبيرة المشهورة، لابن حيّان فصول من غرائبه، وجمل وتفاصيل من عجائبه"[1] واعتمد في كلّ ذلك على المؤرّخ أبي حيّان من أجل ذكر التّواريخ بدقّة متناهية.

كما ضمّن ابن بسّام كتابه الذّخيرة أهمّ القصائد الشّعرية، والرّسائل والمقطوعات النّثرية، على اختلاف أجناسها لأنّه بصدد إظهار العبقرية الأندلسية، وذلك حين يقول: "وقد أودعت هذا الدّيوان الذي سمّيته بكتاب الذّخيرة في محاسن أهل هذه الجزيرة من عجائب علمهم وغرائب نثرهم ونظمهم، ما هو أحلى من مناجاة الأحبّة بين التّمتّع والرّقبة، وأشفى من معاطاة العقار على نغمات المثاليب والأزيار"[2]؛ فابن بسّام قد اختار أحسن الشّعر والنّثر لمباهاة المشارقة بأدب الأندلسيين.

وخلاصة القول إنّ ابن بسّام لم يأخذ حظّه كاملا من التّرجمة لحياته لكن ربّما أهمّية الكتاب قد ألهت الأدباء والمؤرّخين عن التّأريخ له، غير أنّنا وجدنا بعض القبسات في كتب متفرّقة أنارت لنا بعض جوانب سيرته؛ فبفضلها تعرفنا على حياة هذا الأديب العظيم الذي أنجبته الأندلس.

---

1)- المصدر السابق، 1/34-35.

2)- المصدر نفسه، 1/14.

وكتاب الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة، كتاب له وزنـــه في المكتبـــة العربية والعالمية على السّواء، فهو مرجع مهمّ في الأدب التّاريخ والنقد، فالكتاب أُلّف من أجل هدف واحد هو ردّ الاعتبار للأدب الأندلسي الذي هجره أدباء الجزيرة من أجل التّهافت على الآداب المشرقية، فأراد ابن بسّام أن يلفت نظرهم إلى أهمّية آدابهم وتنبيههم على غزارة قرائحهم، إذ هم ليسوا مجبرين على اقتفـــاء أثر المشارقة وإن كنّا لا نستطيع إنكار فضلهم على أهل جزيرة الأندلس.

الفصل الثاني

النّقد الأدبي والدّيني والأخلاقي

إنّ المتصفّح لكتاب "الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة" يدرك للوهلة الأولى أنّه ليس كتابا نقديا، لأنّ المؤلّف يذكر في المقدّمة أنّه "لسان منظوم ومنثور"[1] أي أنّه جمع فيه نثر الأندلسيين وشعرهم. غير أنّ ابن بسّام -في حقيقة الأمر- طرح فيه بالإضافة إلى ما جمع، آراءه النّقدية وتدخّلاته في مختلف القضايا الأدبية والأخلاقية، والجمالية، والفنّية.

1- النّقد الأدبي :

أ- موقفه من الأدب:

على الرّغم من كون ابن بسّام أديبا فإنّه تنكّر للأدب وتبرّأ منه، فقال بصريح العبارة: "وحقائق العلوم أولى بنا من أباطيل المنثور والمنظوم"[2]، فيجعل بقوله هذا العلوم أهمّ من الأدب، ثم يخصّص في نوع الأدب فيقول: "وبدأت بذكر الكتّاب إذ هم صدور في أهل الآداب"[3]، فإذا كانت القاعدة قديما تقديم الشّعراء على الكتّاب فإنّ النّاقد قد شذّ عن العرف وقدّم الكتّاب، وجعلهم صدور أهل الآداب.

ونحن نجد -في الحقيقة- موقفه من الأدب غريبا خاصّة من أديب قضى حياته كلّها في حضن الأدب والأدباء. وعليه فكيف نفسّر هذا التّناقض في شخصية أبي الحسن بخصوص الأدب والأدباء؟ وكيف نبرّر نفوره من الشّعر الذي كان ديوان العرب؟ لكن يبدو أنّ نفور النّاقد من الشّعر له مبرّراته

---

1)- الذخيرة ، ابن بسّام ، ، 18/1.

2)-المصدر نفسه، 18/1.

3)-المصدر نفسه،32/1.

و أسبابه إذ أنّنا نجده يجهر برأيه في الشّعر في مواضع كثيرة من الكتاب فيقول: "ومع أنّ الشّعر لم أرضه مركبا، ولا اتّخذته مكسبا، ولا ألفته مثوى ولا منقلبا إنّما زرته لماما، ولمحته تهّمما لا اهتماما، رغبة بعزّ نفسي عن ذلّه، وترفيعا لموطئ أخمصيّ عن محلّه، فإذا شعشعت راحه ودأبت أقداحه ، لم أذقه إلاّ شميمـــا، ولا كنت إلاّ على الحديث نديما ومالي وله وإنّما أكثره خدعة محتال، وخلعة مختال جدّه تمويه وتخييل، وهزله تدليه وتضليل..."[1]، وموقفه هذا تّجاه الشّعر فيه من القسوة ما يدلّ على أنّه يمقته لما فيه من نفاق وكذب وتملّق، إذ أنّ أخلاقـــه لم تكن تسمح له بمعاقرته. وربّما هذا الرّأي لا ينطبق على الشّعر كلّه بل هنـــاك أغراض معيّنة مثل الهجاء والغزل ولّدت لديه هذا النّفور من الشّعر.

ب- الدّعوة إلى الجديد:

يبدو أنّ أبا الحسن من الذين دعوا إلى نبذ القديم والإقبال على الجديد فهو كان صريحا في دعوته هذه، إذ يقول في مقدّمة الكتاب: "إذ كـــلّ مـــردّد ثقيل، وكلّ متكرّر مملول"[2]، فتكرار ما قاله القدماء يجلب الملـــل ثمّ يواصـــل حديثه فيقول: "وقد مجّت الأسماع(يا دار ميّة بالعلياء فالسّند)، وملّت الطّبـــاع (لخولة أطلال ببرقة ثهمد)، ومحت (قفا نبك) في يد المتعلّمين)، ورجعت علـــى ابن حجر(يعني امرأ القيس) بلائمة المتكلّفين فأمّا (أمن أمّ أوفى) فعلى آثار مـــن ذهب العفا، أما آن أن يصمّ صداها؟ ويسأم مداها؟"[3]، فهذا الكلام يدلّ على

---

1)- السابق المصدر، 18/1.

2)- المصدرنفسه، 13/1.

3)- المصدرنفسه ، 13/1.

أنّ ابن بسّام كان يخوض معركة شرسة ضدّ الشّعر القديم، الذي كان مفخــرة العرب وتاريخهم حتّى إنّهم كتبوه بماء الذّهب وعلّقوه علــى أســتار الكعبــة الشّريفة لتقديسهم له، وهو يشمل بجملته هذه فحول شّعراء الجاهلية.

و لم يتوقّف هنا بل واصل ثورته فيقول:" وكم مــن نكتــة أغفلــت الخطباء، وربّ متردّم غادرته الشّعراء، والإحسان غير محصور، وليس الفضــل على زمن بمقصور، وعزي على الفضل أن ينكر، تقدّم به الزّمان أو تأخّر، لحى الله قوله: الفضل للمتقدّم، فكم دفن من إحسان وأخمل من فلان، ولو اقتصــر المتأخّرون على كتب المتقدّمين، لضاع علم كثير، وذهب أدب غزير"[(1)] ، فابن بسّام يرى أنّ الإحسان والفضل غير محصورين علــى فتــرة محــدّدة، وليســا مقصورين على طائفة معيّنة، ولو أنّ المتأخّرين اعتمدوا فقط على كتب المتقدّمين لضاع علم كثير وذهب أدب وفير.

وابن بسّام ليس أوّل من أثار هذه النّقطة، فقد طرحها قبله ابن قتيبــة (ت276هــ) في الشّعر والشّعراء، في تحديد طبقاته حيث قال: "ولا نظرت إلى المتقدّم منهم بعين الجلالة لتقدّمه، ولا إلى المتأخرين بعين الاحتقار لتأخّره، بــل نظرت بعين العدل على الفريقين وأعطيت المجيد حقّه، ووفّرت عليه حقّه فــإنّي رأيت من علمائنا من يستجيد الشّعر السّخيف لتقدّم قائلــه ويــرذل الشّــعر الرّصين، ولا عيب له عنده إلاّ أنّه قيل في زمانه، أو إنّه رأى قائله و لم يقصر الله العلم والبلاغة على زمن دون زمن، ولا خصّ به قوما دون قوم، بل جعل ذلك

(1)-السابق المصدر ، 13/1ـ14.

مشتركا مقسوما بين عباده في كلّ دهر، وجعل كلّ قديم حـديث في عصـره وكلّ شريف خارجياّ في أوّله"[1]، فمن خلال هذا الكلام يبدو أنّ ابن بسّام قد اطّلع على كتاب ابن قتيبة أو على الأقلّ سمع به، غير أنّ رأييهما مختلفان فـابن بسّام يدعو إلى التبرّأ من الشّعر القديم ، وابن قتيبة إنّما يدافع عن المحدثين.

ثمّ إنّ أبا الحسن لم يكن وفيّا لموقفه، ففي حديثه عن الحصري القيرواني (ت453هـ) قد أخذ عليه عدم ترجمته لشعراء العرب القدامى فقال:" عارض (أي الحصري) أبا بحر الجاحظ بكتابه الذي وسمه بـ (زهـر الآداب وثمـر الألباب) فلعمري ما قصر مداه، ولا قصرت خطاه، ولولا أنّه شغل أكثر أجزائه وأنحائه ومرج يحبو حميّ أرضه وسمائه، بكلام أهل العصر دون كـلام العـرب لكان كتابه الأدبي لا ينازعه ذلك إلاّ من ضاق عنه الأمد، وأعمـى بصـيرته الحسد"[2]؛ فهو يلوم الحصري لعدم ترجمته لشعراء الجاهلية، ولو أنّه فعل ذلـك لكان كتابه أشمل، ولما نازعه أحد في الرّيادة.

ج- موقفه من الموشّحات:

تحدّث ابن بسّام عن الموشّحات في معرض ترجمته **لعبـادة بـن مـاء السّماء** (ت416 هـ) بصفته واحدا من أعلامها، وذكر تاريخهـا وتعريفهـا وكيفيّة ظهورها وتطوّرها فقال:" وكانت صنعة التّوشيح التي نهج أهل الأندلس طريقتها، ووصفوا حقيقتها غير مرقومة البرود، ولا منظومة العقود، فأقام عبادة

1)- الشّعر والشعراء، ابن قتيبة، تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة، 1423هـ،ط 1،2003ص64.

2)- الذخيرة، ابن بسام،584/2.

هذا منآذها، وقوّم ميلها وسنادها، فكأنّما لم تسمع بالأنـدلس إلاّ منـه، ولا أُخذت إلاّ عنه واشتهر بها اشتهارا غلب على ذاتـه، وذهـب بكـثير مـن حسناته"[1]. فصنعة التّوشيح كانت منتشرة بالأندلس قبل عبادة بن ماء السّماء لكن هو من قوّمها حتّى اشتهر بها واقترن اسمه باسمها.

ويواصل حديثه فيقول:" وهي أوزان كثر استعمال أهل الأندلس لها في الغزل والنّسيب"[2]، فابن بسّام يعرف الكثير عن الموشّحات وأغراضـها الـتي تستعمل فيها، كما تحدّث عن أوزانها فقال:" وأوّل مـن صـنع أوزان هـذه الموشّحات بأفقنا واخترع طريقتها -فيما بلغني- **محمد بـن محمـود القـبري الضّرير**، وكان يصنعها على أشطار الأشعار، غير أنّ أكثرها على الأعـاريض المهملة غير المستعملة، يأخذ اللّفظ العاميّ والعجمي ويسمّيه المركز ويضع عليه الموشّحة دون تضمين فيها ولا أغصان"[3].

أمّا موقفه منها فهو يتذبذب بين القبول والرّفض، فهـو مـرّة يستحسـنها ويصفها بأنّها:" مصونات الجيوب بل القلوب"[4] ومرّة أخرى يمجّها ويسقطها من الذّخيرة. فأبو الحسن لم يدرج الموشّحات في الذّخيرة لأنّها على غير أوزان العرب المتعارف عليها، لكن استغربنا ذلك لكونها مظهرا من مظاهر التّجديـد وهو من دعاة الجديد، فكيف لم يستسغها ابن بسّام؟ فهو يقول:" وأوزان هذه

---

1)- المصدر بق السا، 452/1.

2)- المصدر نفسه ، 462/1.

3)- المصدر نفسه، 462/1 .

4)- المصدر نفسه، 462/1.

الموشّحات خارجة عن غرض هذا الدّيوان إذ أكثرها على غير أعاريض العرب"[1]. وكيف لم يجعل منها سلاحا يباهي به المشارقة؟ هل الأوزان هي من نفّرته من الموشّحات أم الألفاظ العامّية التي احتوتها؟ ربّما رفض ابن بسّام الموشّحات وأسقطها من الذّخيرة لسببين اثنين **أولاهما:** هو أنّها جنس غريب دخيل على الأدب العربي عامّة و الأدب الأندلسي خاصّة، ولغتها عامّية غير فصيحة و كان هو من أشدّ المحافظين على الهويّة العربية والإسلامية. **ثانيهما** هو الوزن الذي خرج بها عن عمود الشّعر.

د- النّقد التّاريخي:

لقد خصّص ابن بسّام حيّزا كبيرا للأخبار التّاريخيّة، فذكر في كتابه كيف دخل الإسبان إلى الأندلس، وخروجه من شنترين بعد استيلائهم عليها بالإضافة إلى الحروب الأهلية التي كانت تدور رحاها بين الدّويلات هنا وهناك كما عرّفنا على حياة السّلاطين والأمراء والأحداث الدّائرة في فلكهم، وبهذا وضعنا في صورة المجتمع الأندلسي التّاريخيّة ، وهكذا أصبح الكتاب مصدرا مهمّا في معرفة أخبار الجزيرة في تلك الحقبة. لكنّنا لم نكن ننتظر منه أن يستنطق الرّوايات التّاريخيّة وأن يعلّق عليها أو أن يبطلها ومثال ذلك دحره للتّهمة التي ألصقها البعض بشاعر الرّسول -صلى الله عليه وسلّم- **حسّان بن ثابت الأنصاري** فدافع عنه ابن بسّام بحماسة كبيرة، وذكر لنا هذه الحادثة في الفصل الذي عقده **لحسّان بن المصيصي** وذكر له هذا البيت:

---

1)- المصدرالسابق ، 462/1.

وَمَا الحُرُوبُ وَمِثْلِي أَنْ يُشَـاهِدَهَا وَإِنَّمَا أَنَـا حَسَّـانٌ وَأَنْـتَ عَلِـيٌّ

فابن المصيصي يعتذر عن المشاركة في الغزو ويشبّه نفسه بحسّان بـن ثابت، ويشبّه ممدوحه بعليّ -كرّم الله وجهه- في الشّجاعة والإقدام. ويردّ ابن بسّام على هذه التّهمة باتّهامه لابن المصيصي بالجهل بالتّاريخ فيقول:" وأظـنّ حسّانا هذا لم يكن له علم بالسّير ولا انصراف بعلم الخبر"[1] ثمّ يواصل دفاعـه عن حسّان بن ثابت ويشرح التّهمة الملفّقة له فيقول:" وقد رأيت جماعة من أهل الأدب ينسبون حسّان بن ثابت ـــ رحمه الله ـــ بالجبن و يخرجونه مـن أهـل الضّرب والطّعن ويحتجّون في ذلك بقعوده عن الرسول -صلّى الله عليه وسلّم- في مغازيه وسراياه، وينشدون له في ذلك شعرا أظنّهم نحلوه إيّاه، وهـي هـذه الأبيات على رواية بعض الرواة:

أيّهَـا الفَـارِسُ المُشِـيحُ المُطـير إنَّ قَلْبِـي مِـنَ السِّـلاَحِ يَطِـيرُ
لَيْسَ لِي قُوَّةٌ عَلَىَ رَهَـجِ الخَيْـلِ إِذَا ثَـوْر الغُبَـارُ مُـثِيرُ
أَنَـا ذاَ وَعِنْـدَكَ ذَاكـض بَلِيـدُ وَبَلِيـدٌ فِي عَصْـرِهِ نِحْرِيـرُ[2]

ويكمل ابن بسّام سرد الحكاية فيقول: "ومن أدلّ شيء على ذلك أنّـه هاجى في الجاهلية والإسلام أكثر من ثمانين شاعرا لم يصفه أحدهم بالجبن، ولا عيّره به. ولم يكن شيء يتعايرون به أشدّ منه، ولحسّان أيّام مشهورة ومـواطن في الحروب مذكورة، وكان ممّن له كنيتان في الحرب والسّلم، كمـا كانـت

1)- السابق المصدر 440/1.
2)- المصدر نفسه، 441/1.

الأبطال تفعل على عهده، كان يسمّى في السّلم بأبي الوليد وفي الحـرب بـأبي نعامة"[1] فالنّاقد يحاول أن يجد حجّة مقنعة يبطل بها مزاعم ابن المصيصي فيذكر أنّه لم يعيّره أحد في الجاهلية بالجبن الذي كانوا يعتبرونه عيبا كبيرا.

2- النّقد الأخلاقي عند ابن بسّام:

لطالما كانت الأخلاق مصدر استمرار حضارة أو زوالها، فمتى انتشـر الفساد والعبث كان بداية اندثارها، والأندلس لم تكن في منـأى عـن هـذه القاعدة، فبعد أن شاع المجون وظهرت المحرّمات وكثرت، أصبح الكثيرون مـن الأندلسيين يقبلون على الدّنيا وملذّاتها لا يفرّقون بين حلالها وحرامها، فـرأى الفقهاء الخطر يحدق ببلادهم فلم يجدوا بدّا من الإصلاح ما استطاعوا.

ولّما كان ابن بسّام فقيها وعالما بالدّين انتهج الأخلاق منهجا في حياته ووظّفها في كلّ شيء حتّى إنّه اتّخذ منها معيارا له في النّقد. ومن ذلك:

أ- رأيه في ابن حيّان المؤرّخ:

كان حكم ابن بسّام على أبي مروان بن حيّان (ت469هـ) قاسـيا جدّا في الوقت الذي اعتقدنا أنّ ابن حيّان قد استولى على ثقة أبي الحسن، بما أنّه قد اعتمد على تاريخه في معرفة الأخبار، وعلى الرّغم من ذلك كانت حملته عليه شرسة وغطّت على كلّ حسناته، لأنّه في نظره تعرّض لأعراض النّاس، ومن هنا وجدناه يصفه بأنّه: "كان سهما لا ينمي رميه، وبحرا لا ينكش آذيّه، ولو ثلب الماء ما نقع، أو تعرّض لابن ذُكاء ما سطع، يتناول أعـراض الأحسـاب قـد

1)-السابق المصدر، 441/1.

رسخت في التّخوم، وأنافت على النجوم[1]، ثمّ يصف لنا ابن بسّام الأسلوب المنمّق الذي كان ينتهجه ابن حيّان في ذلك فيقول:" فيضع منارها ويطمس أنوارها، بلفظ أحسن من لقاء الحبيب غبّ الموعد، وأمكن من غدر الطّبيب عند العود، فربّ شامخ بأنقه ثان من عطفه قد مرّ كتابه فصل قد جرّده لوضع حسبه، وخلّده أحدوثة باقية في عقبه وولده فيردّه الظّمآن الرنق، ويلبسه لبس العريان الخلق"[2].

فابن حيّان كان يتناول أعراض النّاس ويجهر بذلك في كتابه، لكنّ ابن بسّام لم يدرج في الذّخيرة كلّ ما قاله ابن حيّان من هجاء والتعرّض لأعراض المسلمين، وكثيرا ما كان يكنّي عن بعض الأسماء والأشخاص تفاديا لجرح مشاعرهم ، إذ أنّه كان يؤرّخ للأحياء من أهل الأندلس.فيقول " وكنّيت عن أكثر من به صرّح، وأعجمت باسم من به أعرب و أفصح، رغبة بكتابي عن الشّين، وبنفسي عن أكون أحد الهاجيين، فقد قالوا: الرّاوية أحد الشّامتين"[3]. لكنّ أبا الحسن بصنيعه هذا قد خالف قواعد النّقل والأمانة العلمية للأحداث التّاريخيّة، وحرم الكثيرون من معرفة التّاريخ بدقّة متناهية.

وبهذه المواقف يكون ابن بسّام قد محا كلّ فضائل الرجل، غير أنّ هذه الثّورة على ابن حيّان ليس لها مبرّر فهو مؤرّخ ينقل الواقع بكلّ أمانة، لا يزيد

---

1)-نفسه المصدر 574/1.

2)- السابق المصدر، 574/2.

3)- المصدر نفسه، 586/2.

ولا ينقص وليس همّه الإصلاح عكس أبي الحسن الذي اتّخذ من الأخلاق منهجا في تقويم سلوكات الناس.

ب- موقفه من غرض الهجاء:

كان للشّعر منذ القدم مهمّة نبيلة تتمثّل في بناء مجتمع متخلّق، يقوم على القيم الفاضلة ولذلك وصف بعضهم الشّعر بأنّه:"يحلّ عقدة اللّسان ويشجّع قلب الجبان، ويطلق يد البخيل، ويحضّ على الخلق الجميل"[1]؛ فهذا القول يؤكّد على دور الشّعر في المجتمع وتأثيره في النّفوس، وهي دعوة صريحة إلى إعطاء الشّعر وظيفته الطّبيعيّة التي وُجد لأجلها، ويقول **أبوتمّام** في السّياق ذاته:

لَوْلاَ مَعَانٍ سَنَّهَا الشِّعْرُ مَا دَرَى بُنَاةُ المَعَالِي كَيْفَ تُبْنَى المَكَارِمُ[2]

فالشّعر هو الذي يبني المجتمع من خلال المعاني الفاضلة التي يدعو إليها وفي كتب التّاريخ أخبار كثيرة عن ذلك، ففي عهد الرسول -صلّى الله عليه وسلّم- كان الشّعر سلاحا قويّا وفعّالا في الدّفاع عن الرسول -صلى الله عليه وسلم- وعن الإسلام، وكلّف بهذه المهمّة **حسّان بن تابت الأنصاري ،وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك**، فذلك الدّور الذي أعطاه الإسلام للشّعر جعل منه أداة فاعلة في الذّود عن الدّين الجديد. غير أنّ بعض الشّعراء جعلوه منبرا لتناول أعراض النّاس والتّهاجي فيما بينهم، وبهذا أفقدوا الشّعر وظيفته

1)- العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده الشّعر، أبو الحسن بن رشيق المسيلي القيرواني 30/1.

2)- ديوان أبي تمام، شرح إيليا الحاوي، دار الكتاب اللناني،ط1981،1م،ص285.

النّبيلة التي وجد لأجلها. ولهذا ركّز ابن بسّام على الهجاء وحرص كلّ الحرص على عدم إدراجه في الذّخيرة، وأسقطه من الكتاب إذ يقول:" ولمّا صنت كتابي هذا عن شين الهجاء وأكبرته أن يكون ميدانا للسّفهاء، أجريت هاهنا طرفا من ملح التّعريض"[1].

فهو قد صان كتابه عن أشعار الهجاء، و لم يرد أن يجعل منه ميدانا للسّفهاء.و لم يكتف بتتريه كتابه عن هذا الغرض بل لام أبا منصور الثعالبي (429هـ) لمّا ذكره في اليتيمة فقال: "فإنّ أبا منصور الثّعالبي كتب منه في يتيمته ما شانه وسمه، وبقي عليه إثمه"[2]، وهذه النّظرة سليمة –فيما نرى- " لأنّ ابن بسّام أحسّ بالأثر الاجتماعي الذي تركه كتاب يتيمة الدّهر للثّعالبي فكان ذلك منبّها له لئلاّ يثقل الذّخيرة بهذا الاتجاه الشّعري لأثره في النّفوس فراع مشاعر أبناء بلده وعصره"[3].

وموقفه هذا إنّما كان" لحساب الفكرة الأخلاقية التي دفعته إلى إقامة علاقة وثيقة بين سلوك الأديب وفنّه من حيث القيمة الأدبية للفنّ التي تتأثّر عنده بسلوك الفنّان إيجابا وسلبا"[4]؛ فهذه العلاقة تفرض على ابن بسّام وضع رقابة شديدة على كلّ أشعار الهجاء التي وقع عليها، وقبول ما وافق مذهبه ورفض ما

---

1)- الذخيرة، ابن بسام، 480/1.

2)- المصدرنفسه، 546/1.

3)- المفاضلة بين الشعر والنثر النقدي الأندلسي مقال بقلم شريف راغب علاونة، أستاذ مساعد بجامعة البترا الخاصّة، الأردن، عمان، مجلّة أمّ القرى لعلوم الشّريعة واللغة العربية وآدابها،ص 30

4)- الاتجاه الأخلاقي في النقد العربي حتى نهاية القرن السابع الهجري، محمد بن قريش الحارثي، مطبوعات نادي مكّة الثّقافي الأدبي، 1409هـ، 1989م، ص101.

دون ذلك. ويقول في موضع آخر من الذّخيرة: "وقد قلت في غير موضع من كتابي هذا أني نزّهته عن الهجاء و لم أجعله ميدانا للسّفهاء"[1].

و لم يكن ابن بسّام وحده من صان كتابه عن شعر الهجاء، بل سبقه أدباء كثيرون منهم **ابن عبد الملك المراكشي** "الذي صان كتابه الذّيل والتّكملة عن شعر المدح للملوك والأمراء واعتنى بقصائد الرّثاء لأنها تعبّر عن عواطف صادقة"[2] وذهب **ابن عبد ربّه القرطبي** (ت328هـ) "إلى نقض كلّ ما قاله في فترة الصّبا من قصائد بقصائد أخرى في الزّهد والتّقوى محّص بها الموقف الأوّل بموقف جديد مشمول بروح التديّن"[3]، كذلك **الحصري القيرواني** (ت413هـ) أعفى الهجاء من كتابه(زهر الآداب وثمر الألباب) حين نجده يقول: "ولابن الرّومي في الأخفش إفحاش صنت الكتاب عنه"[4]، أمّا **ابن خفاجة** (ت533هـ) فقد توقّف عن قول الشّعر لسنوات عديدة بدافع الأخلاق، ويؤكّد ذلك كلامه في مقدّمة الديوان :" فأضربت عنه برهة من الزّمان طويلة، إضراب راغب عنه زاهد فيه"[5]، فكان دافع هؤلاء الشّعراء إلى إسقاط الهجاء من دواوينهم هي الأخلاق والمجتمع الذي كانوا يعشون فيه

---

1)- الذخيرة، ابن بسام1/864.

2)- الذيل والتكملة، عبد الملك المراكشي، تحقيق إحسان عبّاس، بيروت، 1973، ص 2-6.

3)- دراسات في الأدب الأندلسي، دإحسان عبّاس، وداد القاضي، ألبير مطلق، الدار العربية للكتاب ليبيا- تونس، 1392هـ، 1972م، ص 9.

4)- زهر الآداب وثمر الألباب، أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، ط2، 1/488.

5)- ديوان ابن خفاجة، تحقيق سيد غازي، منشأة المعارف بالإسكندرية، ط2، ص10.

فإحسان عبّاس يقول:" أنّ الأدب كان يعيش في جوّ مفعم بالثّقافة الدّينيّة والرّوح الأخلاقيّة، ونجم عن ذلك رقابة ذاتية راسخة في النّفوس"[1].

وليس ابن بسّام وحده من وظّف الأخلاق واستهجن شعر الهجاء، فقد كان **الجاحظ** (ت255هـ) يركّز على الأخلاق في الشّعر فيقول: "ثمّ اعلموا أنّ المعنى الحقير الفاسد، والدنيّ السّاقط يعشّش في القلب ثمّ يبيّض ويفرّخ، فإذا ضرب بجاته وملّ لعروقه، استفحل الفساد وبزل، وتمكّن الجهل وقرح فعند ذلك يقوى داؤه ويمتنع دواؤه، لأنّ اللّفظ الهجين الرديء والمستكره الغبيّ أعلق باللسان أألف للسّمع، وأشدّ التحاما بالقلب من اللّفظ النّبيه الشّريف والمعنى الرّفيع الكريم"[2]، فالجاحظ بكلامه ينبّه على الأثر الكبير الذي يخلّفه المعنى الحقير والألفاظ القبيحة في النّفوس والقلوب معا.

أمّا **القالي** فكان موقفه من شعر الهجاء متّزنا فلا هو أنكره ولا هو أصاخ له" باعتباره غرضا مشرقيّا بارزا في القرن الأوّل الهجري، بل ماز هجاء الطّبع من الهجاء الشّخصي"[3] ومن الأمثلة أيضا ما قاله **الفرزدق** في **الأحوص**: "قاتله الله ما أشعره" وكان الأحوص يعرف بالشّذوذ، فهذا يعني أنّ التّوسّط في الهجاء أمر ضروري لأنّ وظيفة الشّعر في الحقيقة البناء وليس الهدم.

ولم يُرِد ابن بسّام أن يروي الهجاء الفاحش المقذع التي يتناول أعراض النّاس، لأنّه لم يشأ أن يكون أحد الهاجين. ويذكر إحسان عبّاس السّبب وراء

---

1)- دراسات في الأدب الأندلسي، إحسان عبّاس، وداد القاضي، ألبير مطلق، ص9.

2)- المصدر نفسه، 1/85-86.

3)- تيارات النقد الأدبي في الأندلس في القرن الخامس الهجري، مصطفى عليان عبد الرحيم، ص23.

ذلك فيقول: "تجنُّب ابن بسّام إيراد الهجاء في كتابه أمر نظـري، إذ أنّ طبيعـة بعض الأشعار والحكايات المتّصلة بها لا تمكّنه من أن يبرّ بوعده تمامـا، ومـن الطّريف أنّ التعفّف وجد طريقه إلى الشّاعر لا إلى النّاقد فحسب، فصرف عنه ابن خفاجة وابن حميديس ومهما نقل يعجز الشّاعر عن مزاولة هذا الفنّ، فـلا بدّ من أن نجد له أساسا دينيّا في نفسه، أمّا لدى ناقد يؤرّخ أدب عصره مثل ابن بسّام فهذا عامل آخر في إقصاء الهجاء؛ وذلك هو حرص النّاقد على المواضعات والعلاقات الاجتماعية، وهو يؤرّخ للأحياء من معاصريه[1]. وربّمـا أصـاب إحسان عبّاس في إيجاد عذر مقنع لابن بسّام ذلك أنّ أبا الحسن كان حريصـا على العلاقات الاجتماعيّة بين أبناء بلده، ولخوفه من أن يكون سببا للفتنة بـين الشّعراء والكتّاب.

وقد قسّم ابن بسّام الهجاء إلى قسمين: **أوّله** "هجو الأشراف، وهو ما لم يبلغ أن يكون سبابا، أو هجوا مستبشعا، وهو طأطأ قديم من الأوائل، وثـلّ عرش القبائل، إنّما هو توبيخ وتعبير وتقديم وتأخير"[2] ومثّل على هذا النّـوع بقول **الزّبرقان بن بدر** حين شكا **الحطيئة** لعمر بن الخطّاب -رضي الله عنـه- حين قال له الزّبرقان: إنّ الحطيئة هجاني. فقال عمر: وماذا قال. قال لي:

دَعِ المَكَـارِمَ لاَ تَرْحَـلْ لِبُغْيَتِهَـا وَاقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الكَاسِـي[3]

---

1)- تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطّوائف والمرابطين،د إحسان عبّاس، ص80.

2)- الذخيرة، ابن بسام، 546/1.

3)- ديوان الحطيئة: برواية وشرح ابن السّكيت، تحقيق د. نعمان محمد أمين طـه، مكتبـة الخـانجي، القاهرة، ط1408،1هـ، 1987م،ص50.

فقال له عمر: ما أسمع هجاء ولكنّها معاتبة. فقال الزّبرقان: أو ما تبلغ مروءتي إلاّ أن آكل وألبس؟ فقال عمر: عليّ بحسّان. فجيء به فسأله، فقال: لم يهجه وإنّما سلح عليه"[1]. فهذه الحادثة التي وقعت بين الحطيئة والزّبرقان بن بدر تظهر مدى تأثير الهجاء الفاحش في النّفوس.

ومن الأمثلة كذلك قول **جرير**:

فَغُضَّ الطَّرفَ إنّك مِنْ نُمَيْرٍ فَلاَ كَعْباً بَلَغْتَ وَلاَ كِلاَبَاَ[2]

يقول ابن بسّام: "أطفأ مصباحه، ونام وقد كان بات ليلته يتململ، لأنّه رأى أن قد بلغ حاجته، وشفى غيظه. قال الرّاعي: فخرجنا من البصرة فما وردنا ماء من مياه العرب إلاّ وسمعنا البيت قد سبقنا إليه، حتّى أتينا حاضر بني نمير فخرج إلينا النّساء والصّبيان يقولون قبّحكم الله وقبّح ما جئتمونا به"[3] فهذا يؤكّد أنّ الهجاء المقذع له أثر عميق في نفس المتلقّي.

و**القسم الثّاني** هو الهجاء الذي أوجده جرير وطبقته، وكان يقول(يعني جرير): {إذا هجوتم فأضحكوا}، وهذا النّوع لم يهدم قطّ بيتا ولا عيّرت به قبيلة، وهو الذي صُنّا عنه هذا المجموع، وأعفيناه أن يكون فيه شيء منه"[4].

---

1)- الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني، طبعة بولاق الأصلية، الناشران: صلاح يوسف الخليل، ودار الفكر للجميع، بيروت، 1390هـ، 1970م، 55/1.

2/شرح ديوان جرير، محمد اسماعيل عبد الله الصّاوي، دار الأندلس للطّباعة والنشر، بيروت، ج1، ص75.

3)- الذخيرة، ابن بسام، 546/1.

4)- المصدر نفسه، 546/1.

وقسم **فرعيّ** هو التّعريض الذي استحسنه أبو الحسن وذكر طرفا منه. وكان ابن رشيق يعتبر التّعريض أقسى من الهجاء الصّريح وهذا واضح في قوله:" وأنا أرى أنّ التّعريض أهجى من التّصريح، لاتّساع الظنّ في التّعريض، وشـدّة تعلّق النّفس به، والبحث عن معرفته، وطلب حقيقته..."[1].

وضرب ابن بسّام بأمثلة كثيرة منها قوله: "ومن مليح التّعريض لأهـل أفقنا ما قاله بعضهم في غلام كان يصحب رجلا يعرف بالبعوضة:

أَقُـولُ لِشَـادِنكُمْ قَوْلَـةً وَلَكِنَّهَـا رَمْـزَةً غَامِضَـة
لُـزُومَ البَعُـوضِ لَـهُ دَائِمًـا يَـدُلُّ عَلَـى أنّهَـا حَامِضَـة[2]

فمن خلال هذه الأمثلة التي سقناها يظهر أنّ ابن بسّام يفضّل التّعـريض على الهجاء الفاحش، لأن فيه رمز ويخلو من التّصريح. ثمّ يغلـق بـاب التّعريض بقوله: "وهذا الباب ممتدّ الإطناب، ويكفي ما مرّ ويمرّ منـه في أصناف هذا الكتاب"[3]. فباب التّعريض واسع ممتدّ، وابن بسّام لم يشـأ أن يثقل الذّخيرة بالأمثلة المتنوّعة.

ج- موقفه من شعر الغزل:

من المعلوم أنّ شعر الغزل موضوع يصلح للتّقويم الأخلاقي أكثر مـن غيره من الموضوعات الأخرى، لأنّه يمسّ طائفة حسّاسة من المجتمع هي المـرأة

---

1)- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، أبو الحسن بن رشيق المسيلي القيروان، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، صدر هذا الكتاب من وزارة الثّقافة بمناسبة الجزائر عاصمة الثّقافة العربية،2007،2/172-173.

2)-المصدر نفسه، 246/1.

3)- المصدر نفسه، 547/1.

وابن بسّام وجد فيه أرضيّة خصبة؛ فأجاز ما وافق مذهبه ورفض ما دون ذلك.و كثيرا ما كان يعود إلى أحاديث الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- والأقوال المأثورة عن الصّحابة -رضي الله عنهم أجمعين- ليجعلها حجّة له وغالبا ما كان يقدّم لبعض المقطوعات الغزلية بقوله: "ثمّ أعود إلى ملح أهل أفقنا وأرجع إليها، وأكرّ بعد عليها وأقدّم أوّلا الحديث {من أحبّ فعفّ فمات فهو شهيد} والعفاف مع البذل كالاستطاعة مع الفعل"[1] فابن بسّام يفضّل الغزل العذري الذي لا يوجد فيه وصف حسّي، وضرب أمثلة على هذا النّوع بقصيدة **لابن زيدون** (ت463هـ) يقول فيها:

بِنْتُمْ وَبِنّا فَمَا ابْتَلَّتْ جَوَانحنَا شوقا إِلَيْكُمْ وَلاَ جَفّتْ مَآقِينَا
لَمْ نَعْتَقِدْ بَعْدَكُم إِلاَّ الوَفَاءُ لَكُم رَأْياً وَلَمْ نَتَقَلّدْ غَيْرَهُ دِينَا[2]

إلى قوله:

أَمَّا هَوَاكِ فَلَمْ نَعْدِل بِمِنْهَلِهِ شِرْباً وَإِنْ كَانَ يَرْوِينَا فَيُظْمِينَا
لَمْ نَجْفُ أُفُقَ جَمَالٍ أَنْتَ كَوكَبُهُ سَالِينَ عَنْهُ وَلَمْ نَهْجُرْهُ قَالِينَا[3]

فعلّق ابن بسّام على هذه القصيدة بقوله: "وهذه القصيدة بجملتها فريدة، وقد عارضه فيها جماعة فقصّروا عنه"[4] فالشّيء الذي أعجب ابن بسّام

1)- المصدر السابق، 136/1.

2)- ديوان ابن زيدون، تحقيق كرم البستاني، دار صادر للطباعة و النّشر، ودار بيروت للطّباعة والنشر، بيروت، 1384، 1964م، ص10.

3)- المصدر نفسه، ص12.

4)- الذخيرة، ابن بسام 136/1.

في هذه القصيدة هو مضمونها، لأنّ ابن زيدون صرّح بشوقه لمحبوبته وعاتبها على الفراق، دون أن يذكر أيّ وصف لها.

ويواصل أبو الحسن إدراجه لأشعار الغزل **لابن زيدون** بهذه الأبيات:

أَمَّا رِضَاكِ فَشَيْءٌ[1] أَمَا لَهُ ثَمَنٌ لَوْ كَانَ سَامَحَنِي فِي مُلْكِهِ الزّمَنُ
تَبْكِي فِرَاقَكَ عَيْنٌ أَنْتَ نَاظِرُهَا قَدْ لُجَّ فِي هَجْرِهَا الوَسَنُ
إِنَّ الزّمَانَ الذِي عَهْدِي بِهِ حَسَنٌ قَدْ حَالَ مُذْ غَابَ عَنِّي وَجْهَكَ الحَسَنُ
وَاللهِ سَاءَنِي أَنِّي جُفِيتُ ضَنًى بَلْ سَاءَنِي أَنْ سِرِّي فِي الهَوَى العَلَنُ
لَوْ كَانَ أَمْرِي فِي كَتْمِ الهَوَى بِيَدِي مَا كَانَ يَعْلَمُ مَا فِي قَلْبِي البَدَنُ[2]

فعقّب ابن بسّام على هذه الأبيات بقوله: "هذا من شعر ابن زيدون في النّسيب السّائر الغريب، الطيّار المليح الخفيف الرّوح"[3]، فهو يعجب أيّما إعجاب بالغزل العفيف الطّاهر لأنّه يوافق مذهبه الأخلاقي.

ويواصل ان بسّام اختيار أشعار الغزل العفيف، ويذكر أبياتا **لابن فرج الجيّاني:**

وَطَائِعَةُ الوِصَالِ عَفَفْتُ عَنْهَا وَمَا الشّيْطَانُ فِيهَا بِالمُطَاعِ
بَدَتْ فِي اللَّيْلِ سَافِرَةً فَأَتَتْ دَيَاجِي اللَّيْلِ سَافِرَةَ القِنَاعِ
وَمَا مِنْ لَحْظَةٍ إِلاَّ وَفِيهَا إِلَى فِتَنِ القُلُوبِ لَهَا دَوَاعِي
فَمَلَّكْتُ الهَوَى جَمَحَاتِ شَوْقِي لأَجْرِي فِي العَفَافِ عَلَى طِبَاعِي

---

1)- في الدّيوان فعلق. والعلق هو الشيء الثّمين.

2)- ديوان ابن زيدون، ص77.

3)- الذخيرة، ابن بسام، 373/1.

وَبِتُّ بِهَا مَبِيـــتَ الطِّفْـــلِ يَظْمَـــا فَيَمْنَعُـــهُ الفِطَـــامُ عَـــنِ الرَّضَـــاعِ

علقّ أبو الحسن بقوله: "وابن الفرج ممّن تقدّمني في نشر محاسن أهـــل الجزيرة، وإظهار خبايا فضائلهم المشهورة... فإن لم يكن سبق بالزّمـــان فلقـــد زاحم الإحسان، وله شعر مشهور فيه إحسان كثير وهو من مليح الوصـــف في العفاف عن الطّيف"[1].

كما تتبّع أشعار المشارقة وأدرج جزءا يسيرا منها في الكتـــاب، مثـــل أشعار **مسلم بن الوليد، والشّريف الرّضي، والمتنبّي.**

ثمّ ينتقل ابن بسّام إلى الغزل الصّريح الذي لا يستحســـنه ولا يحبّـــذه ويورد أبياتا **للمتنبّي الإشبيلي:**

وَعَجْرَاءٌ حَـــوْرَاءٌ وفْـــقَ الهَـــوَى تحيّـــــرتُ فِيهَـــــا وَفِي أَمْرِهَـــــا
غُلاَميـــــةٌ لَـــــيْسَ فِي جِسْـــــمِهَا مَكَـــانٌ دَقِيـــقٌ سِـــوَى خَصْـــرِهَا
إِذَا أَدْبَـــــرَتْ أَوْ إِذَا أَقْبَلـــــتْ فَفِي فَرِّهَـــا المـــوْتُ وَفِـــي كَرِّهَـــا
ولمـــــا خلـــــوت وَرَقَّ الكَـــــلاَمُ دَفَعْـــــتُ بِكَفِّـــــي فِي صَـــــدْرِهَا
فَمَا زِلْتُ أَجْمَـــعُ طَعْنـــاً وَضَـــرْباً عَلَـــى زَيْـــدِهَا وَعَلَـــى عَمْرِهَـــا

فعقّب أبو الحسن قائلا: "وقول أبي القاسم {علـــى زيـــدها وعلـــى عمرها} من الكناية المختارة، والسّامع يفهم الإشارة"[2]. فهذه الأبيات علـــى

1)-المصدر السابق، 142/1.

2)-المصدر نفسه 149/1.

الرّغم من مضمونها اللاّأخلاقي إلاّ أنّ ابن بسّام لم يكن تعليقه عليها قاسيا، فهو قد أعجب فقط بالاستعارة.

ثمّ ينتقل ابن بسّام إلى الغزل الماجن أو الغزل الذي يكون فيه الوصف الحسّي، ويدرج أبياتا **لابن الأبّار**(ت653هـ) يقول فيها:

زَارَنِي خِيفَ الرَّقِيبِ مُرِيبَا يَتَشَكَّى القَضِيبَ مِنْهُ الكَثِيبَا
رَشَأ رَاشَ لِي سِهَامَ المَنَايَا مِنْ جُفُونٍ يُضْمِي لَهُنَّ القُلُوبَا
قَالَ لِي: مَا تَرَى الرَّقِيبَ مُطِلاًّ قُلْتُ: دَرْهُ أَتَى الجَنَابَ الرّحِيبَا
عَطِهِ أَكُوسَ المُدَامِ دِرَاكاً وَأَدِرْهَا عَلَيْهِ كُوبًا فَكُوبَا

يقول ابن بسّام: "ولقد ظرف ابن الأبّار واستهتر ما شاء ونذر، وأظنّه لو قدّر على إبليس الذي تولّ له نظم هذا السّلك، وأوطأ له ثبج هذا الملك لدبّ إليه ووثب أيضا عليه..."[1]، فهذه المقطوعة الغزلية الماجنة لم ترق لأبي الحسن لما فيها من مجون واستهتار وألفاظ بذيئة.

وقد انتشرت ظاهرة غريبة في المشرق هي التغزّل بالغلمان ، ووصل صداها إلى الأندلس عن طريق التأثير المشرقيّ الكبير. ومن الصّعب أن نتبيّن الأسباب التي أدّت إلى ظهور هذا النّوع من الغزل، ربّما كانت هناك أسبابا اجتماعية ونفسيّة كانت وراء انتشار هذه الظّاهرة. والتغزّل بالغلمان ظاهرة لها جذورها في التّاريخ " فهي كانت موجودة في الحضارات القديمة خاصّة عند الإغريق والرّومان في أزهى فترات حضارتهم، وقد درس كثير من علماء التّحليل

1)- السابق المصدر، 149/1.

النّفسي و علماء النّفس والاجتماع هذه الظّاهرة، ولعلّ أهمّ هذه الدّراسات هي تلك التي قام بها شيخ مدرسة التّحليل النّفسي **سيغموند فريد**"[1]. ويبدو أن ابن بسّام "قد تسامح كثيرا في الأشعار التي قيلت في الغلمان"[2]، في الوقت الـذي ظننّا أنّه سيكون حازما جدا بصفته مصلحا ومن أصحاب المذهب الأخلاقـي، ولكون هذه الظّاهرة دخيلة على المجتمع الإسلامي.

د/ النّقد الدّيني:

يبدو أنّ بعض الدّارسين قد فرّقوا بين النّقد الأخلاقي والنّقد الدّيني، إذ هناك تباين في مفهوم كلّ منهما، حيث يوجد فرق شاسع بين أن يصدر ناقد ما أحكامه عن نظرة أخلاقية ليس لها صلة بالدّين، وبين أن يكون أسـاس هـذه النّظرة النّقدية هو الدّين نفسه سواء كان الإسلام أم المسيحيّة أو دين آخر. وقد مثّل أبو الحسن عن ذلك بقصيدة **لابن دراج القسطلي** حيث قـال:" وقـال القسطلي يمدح الوزير **أبا عيسى سعيد بن القطاع** منها:

أَفِي مِثْلِكَ تَنْبُو أَيَادِيكَ عَنْ مِثْلِـي وَهَذِي الأَمَانِي فِيكَ جَامِعَةُ الشّـمْلِ
وَقَدْ أَمِنَ المِقْدَارُ مَا كُنْـتُ أَتَّقِـي أَرْخَصَتْ الأَيَّامُ مَا كُنْـتُ أَسْـتَغْلِي
وَإِنِّي فِي أَفْيَـاءِ ظِلِّـكَ أَشْـتَكِي شَكِيكَةَ مُوسَى إِذَا تَـوَلّ إِلَـى الظِـلِّ

1)- إشبيلية في القرن الخامس الهجري: دراسة أدبية تاريخيّة،د صلاح خالص، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1981م.ص104.

2)- ينظر: ابن بسام وكتاب الذخيرة، دراسة في حياة الرجل وأهمّ جوانب الكتاب،د علي بن محمد، ص359.

فعلّق ابن بسّام على هذه الأبيات بقوله:" وهذا البيت من لفظ القرآن العزيز، وقد أقدمت على مثل هذا جماعة من الشّعراء محدثين وقدماء، ومن غال متسوّر ومن آخذ معتذر"[1]، فأبو الحسن يستنكر ما يقوم به بعض الشّعراء من استعمال ألفاظ القرآن الكريم في أشعارهم. ثمّ يتتبّع هذه الظّاهرة في أشعار المشارقة، ويورد أشعارا من ذلك قول **أبي العلاء المعرّي**:

كُنْتَ مُوسَى وَافَتْهُ بِنْتُ شُعَيْبٍ غَيْرَ أَنْ لَيْسَ فِيكُمَا مِنْ فَقِيرٍ[2]

و لم يعلّق أبو الحسن على البيت واكتفى بذكر من أخذه عن المعرّي وأخيرا يذكر رأيه في هذا النّوع من المعاني فيقول:" ومن آخر من ركب هذا الأسلوب في مكابرة الحقائق، وأضلّ من ذهب إلى المذهب الغريب من الاجتراء على الخلق والخالق **المنفتل** وهو شاعر محسن بقوله:

وَقَدْ كَانَ مُوسَى خَائِفًا مُتَرَقِّبًا فَقِيراً وَآمَنْتُ المَخَافَةَ وَالفَقْرَا

فابن بسّام يعاتب المنفتل بلهجة فيها كثير من القسوة، ويصفه بالجرأة على الخلق والخالق، فأبو الحسن متشبّع بالثّقافة الدّينية لذلك نجده يدافع عن العقيدة بكلّ حزم.

وأدرج للمنفتل قصيدة أخرى مدح فيها **ابن النّغريلة**، وكان يهوديّا ووزيرا لأحد السّلاطين مطلعها:

أُحَاجِيكُم هَلْ يَمَّمُو الضَّالَ وَالسِّدْرَا أَبَى قَلْبِي المَعْمُود أَنْ يَسْكُنَ الصّدْرَا

---

1)- الذخيرة، ابن بسام، 78/1.

2)- ديوان أبي العلاء المعري، شرح إبراهيم شمس الدين، دار صبح إديسوفت، ط1، 1428هـ، 2008م، ص141.

ثم توقف عن سرد الأبيات الأخرى وقال: "وهذا القصيد اندرج له من الغلوّ فيه ما لا أثبته ولا أرويه، وأبعد الله المنفتل فيما نظم فيه وفصل، وقبّحه وقبّح ما آمل"[1]. فالمنفتل قد بالغ في جرأته على الدّين، هذه الجرأة منعت ابن بسّام من ذكر أبيات القصيدة كاملة لما فيها من ألفاظ ومعان لا تمتّ للإسلام بصلة.

ويذكر له قصيدة أخرى مطلعها:

وَمَنْ يَكُ مُوسىَ مِنْهُم ثُمَّ صَنُوهُ فَقُلْ مَا شِئْتَ لَنْ تَبْلُغَ العَشْرَا

فَكَمْ لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ آيَةٍ تُرَى وَكَمْ لَهُمْ فِي النَّاسِ مِنْ نِعْمَةٍ تَتْرَى

فعقّب ابن بسّام بقوله:" قبّح الله هذا مكسبا، وأبعد من مذهبه مذهبا تعلّق به سببا، فما أدري من أيّ شؤون هذا المدلّ بذنبه المجترئ على ربّه، أعْجب لتفضيل هذا اليهوديّ المأفون على الأنبياء والمرسلين، أم خلعه إليه الدّنيا والدّين؟ حشره الله تحت لوائه ولا أدخله الجنّة إلاّ بفضل اعتنائه"[2]. فأبو الحسن شديد الحساسية اتّجاه كلّ ما يمسّ الإسلام، شديد الغضب والغيرة على دينه لذا يصف المنفتل بهذه الأوصاف البشعة، ويدعو عليه بأن يحشره الله مع اليهودي ابن النّغريلة.

كما تحدّث ابن بسّام عن اللّذين يستعملون الفلسفة في أشعارهم والتي يعتبرها من عيوب الشّعر حين يقول:" وقد قال أهل النّقد إنّه عيب في الشّعر والنّثر أن يأتي الشّاعر أو الكاتب بكلمة من كلام أطبّاء، أو بألفاظ الفلاسفة

1)- الذخيرة، ابن بسام، 765/1.

2)- المصدر نفسه، 765/1.

القدماء، وإنّي لأعجب من أبي الطيّب على سعة نفسه، وذكاء قبسه كثر به انتزاعه وطال إليه إيضاعه، حتّى قال فيه أعداؤه وأشياعه وحسبك من نثر سماعه، وإلى الله مآله، وعليه سؤاله"[1]، وذكر أمثلة على ذلك منها قول **السّميسر**:

مَنْ كان مَخْلُوقًا مِنَ الأَرْضِ إِذْ ... رَكِبَ لَمْ يُطْلِعْ عَلَى السِرِّ

حتّى ترى الجنّة مطروحة ترى ... وَالنَّفْسَ فِي عَالَمِهَا تَسْرِي

فَعِنْدَهَا يَأْمَنُ مَا يَتّقِي ... وَعِنْدَهَا يَعْلَمُ بِالأَمْرِ

هَذَا عَلَى مَذْهَبِنَا ثُمّ قَدْ ... قِيلَتْ مَقَالاَت وَلاَ أَدْرِي

لَقَدْ نَشَبْنَا فِي الحَيَاةِ التِي ... تُورِدُنَا فِي ظُلْمَةِ القَبْرِ

يَا لَيْتَنَا لَمْ نَكُ مِنْ آدَمٍ ... أَوْرَطَنَا فِي شِبْهِ الأَسْرِ

إِذْ كَانَ قَدْ أَخْرَجَهُ ذَنْبُهَ ... فَمَا بَالُنَا نُشْرَكَ فِي الأَمْرِ

علّق ابن بسّام على هذه الأبيات بقوله: "والسّميسر في هذا الكلام ممّن أخذ الغلوّ بالتّقليد، ونادى الحكمة من مكان بعيد، وصرّح عن عمى بصيرته ونشر مطويّ سريرته في غير معنى بديع ولا لفظ مطبوع، ولعلّه أراد أن يتّبع أبا العلاء فيما كان ينظمه من سخيف الآراء، وهبه ساواه في قصر باعه، وضيق ذراعه أين ومن حسن باعه، ولطف اختراعه"[2].

---

1)-**المصدر** السابق، 378/1.

2)- المصدر نفسه، 378/1.

هكذا تتبّعنا بعض الآراء النّقدية التي طرحها ابن بسّـــام في الـــذّخيرة ومواقفه المتعدّدة في شتّى القضايا التي طرقها كموقفه من الأدب الذي تنكّر لـــه وتبرّأ منه، وتقديمه للكتّاب على الشّعراء بالإضافة إلى رأيه الغريـــب في الشّـــعر ورفضه له، وكيف كانت الأخلاق عند ابن بسّام الشّنتريني مـــذهبا وســـلوكا حيث وظّفها في كل ّشيء حتّى في النّقد وجعلها معيارا له في تقـــويم الشّـــعر والحكم عليه، ورفض ما لم يوافق اتّجاهه.

الفصل الثالث

النّقد الفنّي

يتمثل النّقد الفنّي عند ابن بسّام في البديع بكـلّ أنواعـه، والألفـاظ والمعاني والبديهة. والمتتبّع لألوان النّقد الأدبي التي عالجها يلاحـظ أنّ "النّظـرة الأخلاقية قد طغت على كلّ أحكامه الجمالية التي أصدرها على بعض الفنـون الأدبية"[1]، ومن الألوان الأدبية التي ذكرها ابن بسّام في الذّخيرة:

1- البديع:

يظهر اعتناء ابن بسّام بالبديع من أوّل الكتاب حيث أعلن في مقدّمـة الذّخيرة عن حبّه وافتنانه به حين قال:" والبديع ذي المحاسن الذي هـو قـيّم الأشعار وقوامها، وبه يعرف تفاضلها وتباينها"[2]، فهو يعطي البـديع وظيفـة نقدية تتمثّل في المفاضلة بين الأشعار. وقد ذكر ابن بسّام أنّه سيتطرّق إلى بعض أنواع البديع، ويشرحها ويذكر ألقابها إذ يقول:" فقد وعدت أن ألمع في هـذا المجموع بلمع من ذكر البديع، وأن أمهّد جانبا من أسبابه، وأشرح جمـلا مـن أسمائه وألقابه"[3].

وقد تطرّق النقّاد القدامى إلى البديع فعرّفوه واعتنوا به، فهذا **الخطيـب القزويني** يعرّفه بأنّه:" علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقـة

1)- ينظر: ابن بسام وكتاب الذخيرة، دراسة في حياة الرجل وأهمّ جوانب الكتاب، د.علي بن محمد، ص.374.

2)- الذخيرة، ابن بسام، 1/16-17.

3)- المصدر نفسه، 1/18.

ووضوح الدّلالة"[1]،وهتا يلتقي القزويني مع أبي الحسن حيث جعل كلّ منهما البديع علما في قوله:" وحقائق العلوم أولى بنا من أباطيل المنثور و المنظوم"[2] ويقصد هنا بالعلوم البديع بكلّ أنواعه.ويبيّن **الجاحظ**(ت255هـ) أهمّية البديع بالنّسبة للغة العرب حين يقول:" والبديع مقصور على العرب، ومن أجله فاقت لغتهم كلّ لغة وأرْبت على كلّ لسان، والرّاعي كثير البديع في شعره، وبشّار حسن البديع والعتابي يذهب شعره في البديع[3]. ويعرّفه **السكّاكي** بقوله: "كلّ ما قصد به إلى تحسين الكلام، ويقسّمه إلى قسمين: واحد خاص بالمعنى وآخر خاص باللفظ"[4] فالسّكاكي يجعل من البديع وسيلة لتحسين الكلام، ويخصّ به اللّفظ والمعنى. أمّا ابن خلدون (ت808هـ) فيعرّفه على أنّه" النّظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التّنميق"[5]، فهو يرى أنّ البديع أداة من أدوات تزيين الكلام وزخرفته. ويعرّفه آخر بقوله:" كلّ ما استجد من فنون القول في الشّعر المحدث، أو ما أكثر فيه المحدثون من فنون التّعبير"[6]، فهذا التّعريف للبديع يجعل منه مقصورا على لغة المحدثين فقط، في حين أنّ البديع وجد مع الشّعر.

---

1)- علم البديع، عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطّباعة والنشر، بيروت، 1405هـ، 1985م، ص7.

2)- الذخيرة، ابن بسام، 18/1.

3)- البيان والتبيين، الجاحظ، 55/4.

4)- تاريخ النقد الأدبي و البلاغي حتّى القرن الرابع الهجري، د.محمد سلام زغلول، دار المعارف، مصر، 2002م.ص28.

5)- مقدّمة ابن خلدون، ابن خلدون، دار صادر، بيروت، ط1، 2000م، ص446.

6)- تاريخ النقد الأدبي والبلاغي حتى القرن الرابع الهجري، د.محمد سلام زغلول، ص30.

أمّا الحديث عن أوّلية البديع فطويل ومتشعّب، وتختلف فيه الآراء وتتباين، لأنّ "لقب البديع ليس لقبا مستحدثا ولكن اسم لهذه الألوان السّاحرة في الأسلوب ولهذا التّرف البياني في الأداء من استعارة، وتشبيه، وتجنيس وطباق سمّاه **مسلم بن الوليد** (ت208هـ)الشّاعر، وكان يعرف قبل ذلك باللّطيف"[1].

ويرجع **الجرجاني** (ت471هـ) الفضل في إطلاق هذه الصّفة إلى المحدثين لأنّهم أكثروا منه في أشعارهم حتّى عدّوا هم من استحدثوه في الشّعر العربي، لكنّ **ابن المعتز** (ت296هـ) ينفي ذلك بقوله:" قد قدّمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدناه في القرآن واللّغة وأحاديث رسول الله- صلّى الله عليه وسلّم- وكلام الأعراب وغيرهم، ليُعلم أنّ بشّارا ومسلما، وأبا نواس ومن تقيّلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفنّ ولكنّه كثر في أشعارهم فعرف في زمانهم حتّى سمّي بهذا الاسم، فأعرب عنه ودلّ عليه"[2]، **فابن المعتزّ** ينفي أن يكون المحدثون هم من استحدثوا هذا الفنّ.

وقد كان البديع من أهمّ العلوم التي شغلت النقّاد على مرّ العصور لذلك أولاه ابن بسّام أهمّية وحظوة عنده، حتى عدّه من مقاييسه النّقدية في الحكم على الشّعر.

---

1)- البديع في البديع، أبو العبّاس عبد الله بن المعتز، دار الجيل، ط1، 1410هـ، 1990م59/1.

2)- كتاب البديع، عبد الله بن المعتز، تحقيق إغناطيوس كراتشفوفسكي، دار المسيرة، ط2، 1399هـ، 1979م، ص1.

وقد ركّز ابن بسّام في دراسته لعلم البديع على أنواع عـدّة شـرحها وأعطى أمثلة عنـها منـها التّشـبيه والاسـتعارة، والاسـتطراد والتّقسـيم والمماثلة...الخ.

أ- التّشبيه:

اهتمّ العرب القدامى بأنواع عديدة من الصّور الفنّية لكن تركيزهم على التّشبيه كان كبيرا، والفتنة بالتّشبيه فتنة قديمة قدم الشّعر نفسه، فالمتتبّع للشّـعر القديم يلاحظ ثراءه بالتّشبيهات المتعدّدة والجميلة.

وقد كان الشّعراء يربطون الشّاعرية بالوصف والقدرة علـى التّشـبيه واعتبارها دليلا على البراعة وحسن السّبك، لذلك كان يوصف **امرؤ القـيس** بأنّه: "كان أحسن طبقته تشبيها"[1]. ويعدّ **ثعلب** (ت291هـ) التّشبيه أصلا من أصول الشّعر"[2]، والابتكار في التّشبيه من دواعي البراعة ولذلك كان يقدّم امرؤ القيس على كلّ شعراء الجاهليّة لأنّه" سبق العـرب إلى أشـياء ابتـدعها استحسنتها العرب واتّبعته فيها الشعراء"[3]. أمّا **الجاحظ** (ت255هـ) فيذكر

1)- طبقات فحول الشّعراء، ابن سلام الجمحي، دار النهظة العربية للطّباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1969م، ص16.

2)- الصورة الفنّية في الثراث النقدي والبلاغي، د.جابر عصفور، دار الثقافة للطّباعة والنشر، القاهرة، 1974م، ص129.

3)- طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي، ص16.

أنّ: "الشّعراء والبلغاء يشبّهون الإنسان بالقمر والشّمس، والغيث والبحر وبالأسد والسّيف، وبالحيّة والنّجم، ولا يخرجونه بهذه المعاني إلى حدّ الإنسان إذا ذمّوا قالوا: هو الكلب والخنزير، وهو القرد والحمار، وهو الثّور وهو التّيس وهو الذّيب وهو العقرب، وهو الجمل، وهو القرنبي، ثمّ لا يدخلون هذه الأشياء في حدود النّاس، ولا أسمائهم ولا يخرجون بذلك الإنسان إلى هذه الحدود وهذه الأسماء[1].

ويعرّفه **قدامة بن جعفر** (ت337هـ) بقوله: "إنّه من الأمور المعلومة أنّ الشّيء لا يشبه ولا بغيره من كلّ الجهات، إذا كان الشّيئان إذا تشابها من جميع الوجوه و لم يقع بينهما تغاير البتّة، اتّحدا فصار الاثنان واحدا فبقي أن يكون التّشبيه إنّما يقع بين شيئين اشتراكا في معان تعمّهما ويوصفان بها وافتراقا في أشياء يتفرّد كلّ منهما عن صاحبه بصفتها، وإذا كان الأمر كذلك فأحسن التّشبيه هو ما وقع بين شيئين اشتركا في الصّفات أكثر من انفرادهما فيها حتّى يدني بهما إلى حال الاتّحاد"[2].

فقدامه بن جعفر يجعل أحسن التّشبيه ما وقع بين شيئين في الصّفات المشتركة بينهما أكثر من الصّفات التي يتفرّدان فيها. ويعرّفه **أبو هلال العسكري** (ت395هـ) بقوله: "هو الوصف بأن أحد الموصوفين ينوب مناب الآخر بأداة تشبيه، ناب منابة أو لم ينب وقد جاء في الشّعر وسائر الكلام بغير

1)- الحيوان، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ودار الفكر للطّباعة والنّشر، 1408هـ، 1988، 211/1.

2)- نقد الشّعر، قدامة بن جعفر، مطبعة الجوائب، قسطنطينية، ط1، 1302هـ، ص37.

أداة التشبيه"[1]، فالتّشبيه هو أن ينوب المشبّه بالصّفة عن المشبّه به، ويذكر نوعا منه هو التّشبيه البليغ الذي لا تستعمل فيه الأداة.

وهذا **ابن رشيق**(456هـ) يرى أنّ" التّشبيه صفة الشّيء لما قاربه وشاكله من جهة واحدة أو وجهات كثيرة، لا من جميع جهاته لأنّه لو ناسبه مناسبة كلّية لكان إيّاه"[2]، لذلك كان يفضّل **ابن الرّومي** على سائر الشّعراء لأنّه كما قال: "أولى النّاس باسم شاعر، لكثرة اختراعه، وحسن افتتانه"[3]، ثمّ يذهب في موضع آخر من العمدة إلى أنّ شعر ابن الرّومي" من مليح التّشبيه، ما دونه النّهايات التي لا تبلغ وإن لم يكن التّشبيه غالبا عليه كابن المعتز"[4] فابن رشيق يفضّل ابن الرّومي على سائر الشّعراء لحسن تشبيهاته. أمّا **الجرجاني** فيقول:" اعلم أنّ الشّيئين إذا شبّه أحدهما بالآخر كان ذلك على ضربين: أن يكون من جهة أمرين لا يحتاج إلى تأوّل، والآخر: أن يكون التّشبيه محصّلا بضرب من التّأويل"[5].

فكلّ هذه التّعريفات تدلّ على أهمّية التّشبيه كصورة فنّية في الشّعر العربي قديمه وحديثه، لذلك كان الشّعراء والنّقاد على السّواء يولعون به

---

1)-كتاب الصناعتين: الكتابة والشّعر، أبو هلال العسكري، ص239.

2)- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، الجيل، 286/1.

3)-المصدر نفسه، 286/1.

4)- المصدرنفسه، 237/2.

5)- أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق مصطفى شيخ مصطفى و ميسر عقاد، مؤسسة الرسالة ناشرون، ط1، 1468هـ، 1968م، ص70.

ويكثرون منه في أشعارهم، وهذا ما جعل ابن بسّام يوليه عنايته واهتمامه ويتتبّعه في أشعار المشارقة والأندلسيين، " فكان لا يقع على تشبيه متميّز بجودته أو رداءته إلاّ عرض له وذكر من سبق إليه، وأبرز فيه، ووازنه بما هو قريب منه عند فحول الشّعراء"[1].

وذكر بعض الأمثلة التي استحسن فيها التّشبيه من ذلك قوله: "ولمّا سمع **أبا نواس** وقد نبّه نديما للصّبوح، فأخبر عن حاله وهو من جيد تشبيهاته:

فَقَامَ وَاللّيْلُ يَجْلُوهُ الصَّبَاح كَمَا جَلاَ التَّبَسُّمُ عَنْ غُرِّ الثَنِيَّاتِ[2]

وفي الدّيوان (فقلت)، فقال **ابن الرّومي** هذه القصيدة:

يَفْتَرُّ ذَاكَ السّوَادُ عَنْ يَقَقٍ مِنْ ثَغْرِهَا كَاللآلئ النَّسَقِ

كَأَنَّهَا وَالِمزَاجُ يُضْحِكُهَا لَيْلٌ تَفَرَّى دُجَاهُ عَنْ فَلَقِ

فعلّق ابن بسّام قائلا: "وفضل كلام ابن الرّومي على سواه أنّه قدّم في التّشبيه لمعناه مقدّمة أيّدته ووطّأت له الآذان، وأصغت الأفهام إلى الاستحسان وهي قوله: (يفترّ ذاك السّواد عن يقق)"[3]؛ فتفضيل أبي الحسن لابن الرّومي كان بفضل تشبيهه الذي أجاد فيه إجادة كبيرة. ويواصل في انتقاء الأشعار التي أُعجب فيها بالتّشبيه، من ذلك إدراجه لأبيات **لابن حزم** (456هـ) يقول فيها:

---

1)- ابن بسام الأندلسي وكتاب الذخيرة، دراسة في حياة الرجل وأهم جوانب الكتاب،د.علي بن محمد، ص375.

2)- ديوان أبي نواس، دار صادر، د.ط، د.ت، ص117.

3)- الذخيرة، ابن بسام، 150/1.

وَقَهْـــوَةٌ لاَ يَحُـــدُّهَا مُبْصِـــرٌ رَقَّـــتْ وَرَاقَـــتْ فِي أَعْـــيُنِ النَّظَـــرَا
إِذَا دَنَـــتْ فَالسُّـــرُورُ مُبْتَسِـــمٌ وَإِنْ نَـــأَتْ فَالسُّـــرُورُ مُسْـــتَعْبَرَا
كَأَنَّهَـــا وَالحُبَـــابُ يَحْجُبُهَـــا بَحْرٌ مِـــنَ التِّبْـــرِ يَقُـــفّ الجَـــوْهَرَا

فعلّق ابن بسّام على البيت الثّالث بقوله: "وبيته الثّالث في هـذه مـن التّشبيه الذي ماله شبيه"[1]، فهو يعجب بالتّشبيه الذي يبرع فيه صاحبه، ويعـدّ هذا من دواعي البراعة. كما أورد بيتين **لأبي العلاء صاعد بن الحسن البغدادي** في وصف إبريق:

وَقَهْوَةٌ فِي فَـمِ الإِبْرِيـقِ صَـافِيَةٌ كَدَمْعٍ مَفْجُوعَـةٍ بِـالإِلْفِ مِعْبَـارُ
كَأَنّ إِبْرِيقَنَا وَالـرَّاحُ فِـي فَمِـهِ طَيْـرٌ تَنَـاوَلَ يَاقُوتًـا بِمِنْقَـارِ

علّق بقوله: "فكانوا يولعون بهذا التّشبيه"[2]؛ أي أنّ هذا النّـوع مـن التّشبيه كان مستحبّا من طرف مجموعة من الشّعراء، لذلك كثر في أشعارهم.

ويقول ابن بسّام: "ومن الحسن في تشبيه الخيل بالبحر قول بعض أهل العصر وهو الأديب **أبو بكر بن العطّار اليابسي** من شـعر أنشـدنيه لنفسـه ببطليوس سنة ستّ وثمانين:

وَالجَيْشُ قَدْ جَعَلَتْ أَبْطَالَهُ مَرَحَـا تَحْتَالُ عَنْ خَـيْلاَءِ السّـبْقُ العَتِـقِ
إِذَا اسْتَـعْبَرَتْ الهَيْجَاءُ أَخْمَـدَهَا مَا فِي مَعَاطِفِهَا مِـنْ نَـدْوَةِ العَـرَقِ
هِيَ البُحُورُ وَلَكِـنْ فِي كَوَاثِبِهَـا عِنْدَ الكَرِيهَةِ مَنْجَاةٌ مِـنَ الغَـرَقِ"[3]

---

1)- السابق المصدر، 133/1.
2)-المصدر نفسه، 25/4.
3)-المصدر نفسه، 464/2-465.

فابن بسّام قد استحسن تشبيه أبي بكر بن العطّار اليابسي الخيل بالبحر أيّما استحسان، ويظهر ذلك في تعليقه على هذه الأبيات.

كما أدرج بيتين **لابن الرّومي** يقول فيهما:

"مَا بَالُهَا قَدْ حُسِّنَتْ وَرَقِيبُهَا أَبَدًا قَبِيحٌ قُبِّحَ الرَّقْبَاءُ
مَا ذَاكَ إِلاَّ أَنَّهَا شَمسُ الضّحَى أَبَداً تَكُونُ رَقِيبَهَا الحِرْبَاءُ"[1]

فعقّب أبو الحسن بقوله: "هو ممّن أحسن في التّشبيه وذهب بهذا المعنى مذهبا من الحُسن لا شكّ فيه"[2]. ويذكر كذلك أبيات **لابن عبدون** (ت529هـ) منها:

مَضَى فِي نَائِبَاتِ الدَّهْرِ صَلْدَا فَلَمْ يَلْثَم وَقَدْ طَالَ الضِّرَابُ
وَقَدْ زَرّوا الضُّلُوعَ عَلَى قُلُوب لَوْ انْتَضَيْتَ لَقَطَّ بِهَا الرِّكَابُ
وَسَرتْ وَمِنْ كَوَاكِبِهِ حُلَيٌّ عَلَيّ وَمِنْ غَيَاهِبِهِ قِرَابُ

قال أبو الحسن: "قول أبي محمد (وسرت ومن كواكبه حليّ) سلك فيه سبيلا من البديع لا تسلك، واستولى منه على غاية من الكلام المطبوع قلّما تدرك"[3]. ثمّ ينتقل إلى الشّعراء الجاهليين ويختار أبياتا **لعنترة بن شدّاد العبسي** يقول فيها:

---

1)- ديوان ابن الرومي، شرح مجيد طراد، دار الجيل، بيروت، ط1، 1418هـ،1، 50/1998

2)- الذخيرة، ابن بسّام، 168/2.

3)-**المصدر** نفسه، 708/2-709.

"فَتَرَى الذُّبَابَ بِهَا يُغَنِّي وَحْدَهُ هَزِجًا كَفِعْلِ الشَّارِبِ الْمُتَرَنِّمِ
غَرِداً يَحُكُّ ذِرَاعَهُ بذِرَاعِهِ فِعْلَ الْمُكِبِّ عَلَى الزِّنَادِ الأَجْذَمِ"[1]

علقّ أبو الحسن على هذين البيتين بقوله:" وهذا من التّشبيه الذي ماله شبيه، و لم يجسر عليه أحد"[2]، لهذا الحدّ أُعجب ابن بسّام بتشبيه عنترة حتىّ قال أنّه لا يقدر أيّ شاعر مهما كانت براعته من أن يأتي بمثله.

ثمّ ينتقل إلى التّشبيه الذي يستقبحه ويسوق عدّة أمثلة منها قول **ابن الفتوح:**

رِيمٌ أَرُومُ الـدَّهْرَ مِنْهُ عَلَى رَغْمِ البِدَا قُرْبًا فَمَا أَقْدِرْ
كَأَنَّمَا حُمْرَتُهُ إِذَا بَدَتْ مِنْ فَوْقِهَا نَارٌ بِهَا يَسْعَرْ

عقّب ابن بسّام بقوله: "وتشبيه صفاء الوجه وحمرته بصفاء الماء، وحمرة النّار من مبتذلات الألفاظ"[3]، فهذه التّشبيهات متداولة ليس فيها إبداع ولا اختراع.

ويقول **ابن فتوح** في أبيات أخرى:

خُذْهَا إِلَيْكَ فَإِنَّهَا مَخْلُوقَةٌ مِنْ فِطْنَةٍ مَشْبُوبَةٍ وَذَكَاءِ
تَحْكِيكَ فِي دَفْعِ الْمِلِمِّ لِأَنَّهَا وَلَعَتْ شَبْقَ حَنَاجِرِ الأَعْدَاءِ

---

1)- البيت في الديوان : **وَخَلاَ الذّباب بها فليس ببارح قدح المكبّ على الزناد الأجذم.**
ديوان عنترة بن شدّاد، شرح حمدوطمّاس، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2، 1425هـ، 2004م ص13.

2)- الذخيرة، ابن بسام، 702/2.

3)- نفسه المصدر، 775/2.

قال أبو الحسن: "وقد نها بعض الظّرفاء الأدباء عن إهدائها واستهدائها قال الفقيه **ابن قالوص:**

إِعْطَاءُ مِثْلِي لِلْمِقَصِّ نَقِيصَةٌ وَأَرَى إِعَارتهَا أَجَلُّ العَارِ
إِنّ المِقَصَّ حَكَتْ شَكْلَهَا لاَ وَالجَوَابُ بِلاَ لَئِيمُ نَجَارِ

وهذا الاختراع البديع والتّشبيه المطبوع، وتشبيه ابن فتوح صديقه بالمقصّ من الوصف القبيح فهو مماّ قال فيه إلى العقوق وعذابه سواء الطّريق ومتى كانت المقصّ تشقّ الحناجر، وتجرّ الجرائر"[1].

هكذا كان تتبّع ابن بسّام للتّشبيه في أشعار المشارقة وأهل الجزيرة بالإضافة إلى أشعار الجاهليين، فهو يعجب ويفتتن بالتّشبيه الذي يجيد فيه صاحبه، ويبتكر فيه الأوصاف، لكنّه ينفر من بعض التّشبيهات التي تحتوي على بعض الألفاظ المتداولة والتي لا توصل الفكرة التي يقصدها الشّاعر إلى المتلقّي.

ب- الاستعارة:

هي من الأنواع البديعيّة التي استوقفت ابن بسّام كثيرا في الذّخيرة وبحث عنها في أشعار القدامى وأهل عصره، والاستعارة من الصّور البيانيّة التي اهتمّ بها العرب على مرّ العصور فاهتمّوا بها وأكثروا منها في أشعارهم. وحدّ الاستعارة مختلف من ناقد إلى آخر، فهذا **ابن رشيق** يعرّفها بقوله: "الاستعارة أفضل المجاز، وأوّل أبواب البديع، وليس في حلى الشّعر أعجب منها، وهي من محاسن الكلام إذا وقعت موقعها ونزلت موضعها، والنّاس مختلفون فيها منهم من

1)-المصدر السابق، 784/2.

يستعبر للشّيء ما ليس فيه ولا إليه"[1]، فصاحب العمدة يؤكّد على أنّ الاستعارة أفضل الصّور البيانية، فبها يكون الكلام جميلا وبليغا. ويقول أبو هلال العسكري(ت395هـ) بأنّها: "نقل العبارة عن وضع استعمالها في أصل اللّغة إلى غيره لغرض، وذلك الغرض إمّا أن يكون شرح لمعنى وفضل الإبانة عنه أو لتأكيده والمبالغة فيه، أو الإشارة إليه بالقليل من اللّفظ أو تحسين المعرض الذي يبرز فيه"[2]، فهو يبيّن دور الاستعارة ووظيفتها المتمثّلة في شّرح المعنى.

وقد كان ابن بسّام مولعا بالاستعارات البليغة الحسنة ففي الفصل الذي عقده **لابن شمّاخ** ذكر له بيتا يقول فيه:

فَلَوْلاَ عُلاَهُ عِشْتُ دَهْرِي كُلُّهُ وَكَيْسُ كَلاَمِي لاَ أَحُلُّ لَهُ عَقْد

فعلّق ابن بسّام على هذا البيت بقوله: "واستعاراته كيسا للكلام من مضحكات الآنام، وقرأت في أخبار الصّاحب بن عبّاد قال كنّا نتعجّب من قول **أبي تمّام** (لا تسقني ماء الملام)" [3]، ونستبشع استعاراته له ماء حتّى عذُبت عندنا بـ(حلواء البنين) في قول **أبي الطيّب**:

"وَقَدْ ذُقْتُ حَلْوَاءَ البَنِينِ عَلَىَ الصِّبَا فَلاَ تَحْسَبِينِي قُلْتُ مَا قُلْتُ عَنْ جَهْلِ"[4]

---

1)- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق، 281/2.

2)- كتاب الصناعتين: الكتابة والشّعر، أبو هلال العسكري، ص196.

3)- البيت هو: **لا تسقني ماء الملام فإنّني صبّ قد استعذبتُ ماء بكائي**(ديوان أبي تمّام شرح الخطيب التبريزي، تحقيق محمد عبد عزّام، دار المعارف، ط5، 22/1.

4)- ديوان أبي الطيّب المتنبّي، شرح أبي البقاء العكبري، ضبطه وصححه ووضع فهارسه مصطفى السّقا وإبراهيم الأبياري، و عبد الحفيظ شلبي، دار الفكر، د.ط، د.ت، 52/3.

ويواصل ابن بسّام تتبّعه للاستعارة ويدرج بيتا **لابن الطّراوة:**

أَبَا حَسَن فُتَّ المُلُوكَ مَهَابَةً فَكُ لَهُمْ فَأْسَ المهَابَةِ عَالِكُ

وقول **حسّان بن المصيصي:**

إِذَا كَانَتْ جِفَانُكَ مِنْ لُجَيْنٍ فَلاَ شَكَّ الغِنَى فِيهَا ثَرِيدُ

وقد قدح أهل النّقد في المتنبّي بخروجه في الاستعارة إلى حيّز البعد بقوله:

مَسَرَّةٌ فِي قُلُوبِ الطِيبِ مُفَرّقُهَا وَحَسْرَةٌ فِي قُلُوبِ البِيضِ وَالبَلْبِ[1]

ج- الاستطراد:

يقول ابن بسّام في الاستطراد: "وحقيقة الاستطراد عندهم أن يومئ الشّاعر أنّه يريد مذهبا وهو إنّما يريد غيره، فإن قطع ورجع إلى ما كان فيه فهو الاستطراد الحقيقي، وإن تمادى فذلك الخروج[2]، وأصحّ الاستطراد قول **السّموأل:**

"وَنَحْنُ أُنَاسٌ لاَ نَرَى القَتْلَ سُبَّةً إِذَا مَا رَأَتْهُ عامرٌ وَسَلُولُ"[3]

والبيت في الدّيوان:

(وَإِنَّا لَقَوْمٌ لاَ نَرَى القَتْلَ سُبّةً إِذَا مَا رَأَتْهُ عَامِرٌ وَسَلُولُ)

---

1)- الذخيرة، ابن بسام، 901/2.

2)- نفسه رد صملا،901/2.

3)- ديوانا عروة بن الورد و السّموأل، دار صادر، بيروت، د.ط، د.ت، ص91.

ثمّ يسوق أمثلة عن الخروج من الذمّ إلى المدح، ويذكر بيتا **لزهير بن أبي سُلمى:**

إِنَّ البَخِيلَ مَلُومٌ حَيْثُ كَانَ وَلَكِنَّ الجَوَادُ عَلَى عِلاَّتِهِ هَرِمُ[1]

والانتقال من مدح إلى ذمّ ويمثّل بقول **بكر بن النطاح** في **مالك بن طوق:**

فَتَى شَقِيَتْ أَمْوَالُهُ بِعِفَاتِهِ كَمَا شَقَيَتْ بَكْرٍ بِأَرْمَاح ثَغْلَبِ

"وهذا مليح أوّله خروج وآخره استطراد، وملاحته أنّ مالكا من بني ثغلب فصار الاستطراد زيادة في مدحه"[2].

ويقول أيضا في الاستطراد: "وأصل الاستطراد أن يريك الفارس أنّه فرّ، وإنّما فرّ ليكرّ، وكذلك الشّاعر يريك أنّه قصد في شيء فيعرض له شيء لم يقصد إليه، وإن لم يقصد حقيقة إليه، ومن الاستطراد نوع يسمّى الإدماج"[3]، ومن الأمثلة التي ذكرها في هذا النّوع قول **ابن طاهر لابن وهب** حين وزر **المعتضد:**

أَبَى دَهْرَنَا إِسْعَافَنَا فِي نُفُوسِنَا وَأَسْعَفَنَا فِي مَنْ نُحِبُّ وَنُكْرِمُ
فَقُلْتُ لَهُ: نُعْمَاكَ فِيهِمْ أَتَمَّهَا وَدَعْ أَمْرَنَا إِنَّ الْمُهِمَّ الْمَقْدِمُ[4]

---

1)- ديوان زهير بن أبي سلمى، دار صادر، بيروت، ص91.

2)- الذخيرة، ابن بسام، 143/2.

3)- المصدرنفسه، 901/2.

4)-المصدر نفسه، 901/2.

و لم يقتصر ابن بسّام على هذه الأنواع من البديع، بل أشار إلى أنماط أخرى منها التّقسيم، والمعاقدة، والتّتميم، والاستدراك، إلى غير ذلك من المصطلحات البديعيّة الأخرى. ويبدو أنّ رصيده في هذا العلم لا بأس به" وربّما قد قرأ كتبا عديدة في هذا المجال لمختلف الشّعراء والنقّاد، من أمثال ابن المعتزّ، وبشار بن برد، وأبي تمّام، والمتنبيّ وغيرهم، ثمّ لا شكّ في أنّه اطّلع على كتاب العمدة لابن رشيق وأخذ عنه تسمية بعض الأنواع البديعيّة"[1].

د- التّقسيم:

التّقسيم كما عرّفه ابن رشيق هو: "أن يرى بعضهم أنّه استقصاء الشّاعر جميع أقسام ما ابتدأ به"[2]، وقد ذكره ابن بسّام في الذّخيرة ومثّل ببيت **لابن زيدون:**

تُهْ، وَاسْتَطِلْ أَصْبِرْ، وَعِزْ أَهُنْ وَوَلِّ أُقْبِلْ، وَقُلْ أَسْمِعْ، وَمُرْ أَطِعْ

قال ابن بسّام:" احتذى في هذا أبياتا **لأبي العميثل** (ت140هـ) في قوله:

فَاصْدُقْ وَعُفَّ وَأَنْصِفْ وَاحْتَمِلْ وَاصْفَحْ وَدَارِ وَكَافِ وَاحْلَمْ وَاشْجَعْ

وَالْطُفْ وَلِنْ وَتَأَنَّ وَاحْلُمْ وَاتّئِدْ وَاحْزِمْ وَجِدّ وَحَامِ وَاحْمِلْ وَدَافِعْ

وشابه **ديك الجنّ** في قوله:

احْلَ وَامْرُرْ وَضَرّ وَانْفَعْ وَلَنْ وَاحت شَنْ وَرَشْ وَابْر وَانْتَدِبْ لِلْمَعَالِي

1)- ينظر: تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، محمد رضوان الداية، ص381.

2)- العمدة، ابن رشيق، 39/2.

وهذا الباب صنعه المولّدون وعدّوه تقسيما وتقطيعا .

هـ- المماثلة:

المماثلة عند أبي الحسن هي السّجع. يقول في ترجمة **أبي الحسن صالح بن صالح الشّنتريني:** "إنّ كلامه في المماثلة والسّجع جار على الطّبع ذاهب بين الجزالة والحلاوة"[1].

غيره فيعدل عن الأوّل للثّاني، فيأتي به ثمّ يعود إلى الأوّل من غير أن يخلّ في شيء ممّا يشدّ الأوّل"[2]

ز- التّتميم:

يعرّف **ابن رشيق** التّتميم بقوله:" هو التّمام أيضا، وبعضهم يسمّى ضربا منه احتراسا واحتياطا، ومعنى **التّتميم:** أن يحاول الشّاعر معنى فلا يدع شيئا يتمّ به حسنه إلاّ أورده وأتى به، إمّا مبالغة أو احتياطا أو احتراسا من التّقصير"[3].

ويعرّفه **قدامة بن جعفر:** "هو أن يذكر الشّاعر المعنى فلا يدع من الأحوال التي تتمّ بها صحّته وتكمل معه جودته شيئا إلاّ به"[4].

---

1)- السابق المصدر، 201/1.

2)- العمدة في محاسن الشعر ونقده ، ابن رشيق،45/2.

3)-المصدر نفسه، 50/2.

4)- نقد الشّعر، أبو الفرج قدامة بن جعفر، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة الكلّيات الأزهرية، ط1، 1398هـ، 1975م.ص144.

ويعرّفه **أبو هلال العسكري:** "هو أن توفي المعنى حظّه من الجودة وتعطيه نصيبا من الصحّة، ثمّ لا تغادر معنى يكون فيه تماما إلاّ تورده أو لفظا يكون فيه توكيدا إلاّ تذكره"[1].

ح- المعاقدة:

يقول ابن بسام:" وسمّاها بعض أهل النّقد معاقدة، وهو أن يشترط الشّاعر شروطا في معان يريد التّوفيق بينها لكلّ صنف منها بيت يماثله، ومن عجيب ذلك قول **جندب** أخت **عمرو بن ذي الكلب:**

فَأَقْسَمْتُ يَا عَمْرُو لَوْ نَبّهَاكَ إِذَا نَبَّهَاكَ مِنْكَ دَاءً عُضَالاَ

إِذَا نَبَّهَا لَيْتَ عَرّسَةٍ مُغِيثًا مُفِيداً نُفُوسًا وَمَالاَ

فعقدت بين مغيثا ومفيدا"[2].

هكذا كان تتبّع ابن بسّام للبديع الذي افتتن به، فأولاه عنايته وذكر بعض أنواعه، وشرحها وأتى بأمثلة منها سواء في أشعار الأندلسيين أو في أشعار المشارقة.

2- اللّفظ والمعنى:

طرح ابن بسّام قضيّة اللّفظ والمعنى بشكلّ جدّي وأبدى رأيه فيها بكلّ صراحة، وقضيّة اللّفظ والمعنى قضيّة قديمة قدم الشّعر طرحها نقّاد عديدون ووقفوا عندها طويلا فمنهم من انتصر للّفظ ومنهم من فضّل عليه المعنى، فكان

1)- كتاب الصّناعتين: الكتابة والشّعر، أبو هلال العسكري، ص389.

2)- الذخيرة، ابن بسام، 207/2.

بشر بن المعتمر (210هـ) يجمع بين اللّفظ والمعنى ويجعل كليهما ضروريا في صياغة الجملة إذ يقول:" إيّاك والتّوعّر، فإنّ التّوعّر يسلمك إلى التّعقيد والتّعقيد هو الذي يستهلك معانيك ويشين ألفاظك"[1].

أمّا **ابن قتيبة** فيقسّم اللّفظ إلى أربعة أضرب:

"1- ضرب حسن لفظه وجاد معناه.

2- ضرب حسن لفظه وجاد، فإذا فتّشته لم تجد هناك فائدة في المعنى.

3- ضرب جاد معناه وقصرت ألفاظه.

4- ضرب تأخّر معناه وتأخّر لفظه"[2].

ويقول **ابن رشيق** في قضيّة اللّفظ والمعنى: "سمعت بعض الحذّاق يقول: "قال العلماء اللّفظ أغلى من المعنى ثمنا، وأعظم قيمة، وأعزّ مطلبا، فإنّ المعاني موجودة في طباع النّاس يستوي الجاهل فيها والحاذق ولكن العمل على جودة الألفاظ، وحسن السّبك، وصحّة التّأليف ألا ترى لو أنّ رجلا أراد في المدح تشبيه رجل لما أخطأ أن يشبّهه في الجود بالبحر، وفي الإقدام بالأسد، وفي العزم بالسّيل، وفي الحسن بالشّمس، فإن لم يحسن تركيب هذه المعاني في أحسن حلاها من اللفظ الجيّد الجامع للرّقة والجزالة والعذوبة، والطّلاوة والسّهولة والحلاوة لم يكن للمعنى قدر"[3].

---

1)- الصّورة الأدبية: تاريخ ونقد، علي صبح علي، دار إحياء الكتب العربية، د.ط، د.ت، ص14.

2)- الشّعر والشّعراء، ابن قتيبة، دار الحديث، القاهرة، 1423هـ، 65/1.

3)- العمدة في محاسن الشّعر ونقده، ابن رشيق، 286/1.

ومن الذين انتصروا للألفاظ **ابن خلدون** في قوله:" اعلم أنّ صناعة الكلام نظما ونثرا إنّما هي في الألفاظ لا في المعاني، وإنّما المعاني تَبَع لها وهي أصل، فالصّانع الذي يحاول مَلَكَة الكلام في النّظم والنّثر إنّما يحاول في الألفاظ بحفظ أمثالها من كلام العرب ليكثر استعماله وجريه على لسانه، حتّى تستمرّ له الملكة في لسان مضر، ويتخلّص من العُجمة التي رَبضتْ عليها في حيله"[1] فابن خلدون يفضّل الألفاظ على المعاني إذا أنّ لغة أيّ شخص تظهر أوّلا في اللّفظ لا في المعنى.

أ- الأخذ أو السّرقة:

نقل ابن بسّام في هذا الباب من "**موازنة الآمدي** واطّلع بدون شكّ على كتاب **العمدة** غير أنّه لم ينبّه على ذلك"[2]، وقد استعمل عدّة مصطلحات أشار بها إلى السّرقة منها: **المخترع:** وهو أنّ الشّاعر أوّل من اخترع المعنى وسبق إليه وضرب أمثلة منها قول **عبادة بن ماء السّماء:**

أَغْرقَ فِيهَا الهمُّ لَكِنْ طَفَا حُبَابُهَا مِنْ فَوْقِهَا مُزْبِدَا
كَأَنَّمَا شَيَّبَهَا شَارِبٌ أَمْسَكَهَا فِي كَفِّهِ سَرْمَدَا

قال ابن بسّام معلّقا: "وهذا البيت أراه اخترع معناه"[3].

كذلك **تتبّع المعاني** يقول ابن بسّام:" وتتبّع كلّ معنى يعترض يخرج بي عن الغرض"[1].

---

1)- **المقدمة** ، ابن خلدون، دار صادر، بيروت، ط1، 2000م، ص466.

2)- تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، محمد رضوان الداية، ص382.

3)- الذخيرة، ابن بسام، 1/473-474.

أيضا **المتداول**، حيث تطرّق ابن بسام إلى المعاني المتداولة والشّائعة بين الشّعراء و لم يعدّها سرقة، ومثّل بعدّة أبيات منها قول **شمس المعالي**:

قُلْ لِلَّذِي بِصُرُوفِ الـدَّهْرِ عَيَّرَنَـا هَلْ عَائِدُ الدَّهْرِ إِلاَّ مَـنْ لَـهُ خَطَـرُ
أَمَا تَرَى البَحْرَ تَطْفُو فَوْقَهُ جِيَـفُ وَتَسْـتَقِرُّ بِأَقْصَـى قَعْـرِهِ الـدُّرَرُ

قال أبو الحسن: ومعنى بيت شمس المعالي الثّاني من متداولات المعاني"[2]

وبيت **ابن زيدون**:

"أَمَّا هَوَاكِ فَلَـمْ نَعْـذِلْ بِمَنْهَلِـهِ شِرْبًا وَإِنْ كَانَ يَرْوِينَـا فَيُظْمِينَـا"[3]

علّق ابن بسّام بقوله:" وقول ابن زيدون(وإن كان يروينا فيظمينا) معنى متداول"[4]، وذكر بيتين **لابن عبدون** يقول فيهما:

يَا نَفْحَةَ الزّهْرِ مِنْ مِسْرَاكِ وَافَـانِي خُلُـوصُ رَيّـاكِ فِي أَنْفَـاسِ آذَارِ
وَالأَرْضُ فِي حُلَلٍ قَدْ كَانَ يَحْرُقَنَـا تَوَقُّدَ النُّورِ لَـوْلاَ مَاؤُهَـا الجَـارِي

قال: ومعنى بيت ابن عبدون من متداولات المعاني"[5]، ويقـول **ابـن شهيد** في المعاني المتداولة: "إذا اعتمدت معنى قد سبقك إليه غـيرك فأحسـن تركيبه، وأرق حاشيته، فاضرب عنه جملة، وإن لم يكن بدّ ففي غير العـروض

---

1)- نفسه المصدر، 215/1.

2)-المصدر السابق، 350/1.

3)- ديوان ابن زيدون، تحقيق كرم البستاني، دار صادر، بيروت، ص12.

4)- الذخيرة، 363/1.

5)-المصدر نفسه، 30/1-31.

التي تقدّم إليها ذلك المحسن لتنشط طبيعتك وتقوّي متنك"[1]، فابن شهيد ينبّه على المعاني المسبوق إليها ويؤكّد على ضرورة إعادة صياغتها حتّى لا تُعدّ سرقة وسّماها-أي المعاني- في فاتحة الكتاب بـ(الأخذ) فقال: "ولست أقول أخذ هذا من هذا قولا مطلقا"[2]، ويقول أيضا: "أخذ المعاني أن تترك القافية والوزن وكذلك يجب أن يقصد إلى التّطويل، وإذا قصّر المتقدّم"[3] وضرب مثالا على ذلك بقوله: "ألا ترى قول أبي عامر(يعني ابن شهيد) حين سمع قول **الرمّاني**:

وَلَمْ أَرَى أَحْلَى مِنْ تَبَسّمِ أَعْيُنٍ غَدَاةَ النَّوَى عَنْ لَؤْلَؤٍ كَانَ كَامِنَا

فقال **أبو عامر** هذه القصيدة:

"وَلَمَّا فَشَا بِالدَّمْعِ مِنْ سِرِّ وُجْدِنَا إِلَى كَاشِحِينَا مَا لِقُلُوب كَوَاتِمُ
أَمَرْنَا بِإِمْسَاكِ الدُّمُوعِ جُفُونَنَا لِيَشْجَى بِمَا انْطَوَى عُذُولٌ وَلاَئِمُ
فَظَلّتْ دُمُوعُ العَيْنِ حَيْرَى كَأَنّهَا خِلاَلَ مَآقِينَا لآل تَوَائِمُ
أَبَى دَمْعُنَا يَجْرِي مَخَافَةَ شَامِتٍ فَنَظَّمَهُ بَيْنَ المَحَاجِرِ نَاظِمُ"[4]

---

1)- التّوابع و الزّوابع، ابن شهيد الأندلسي ، ص60.

2)- الذخيرة، ابن بسام، 19/1.

3)-**المصدر** نفسه، 322/1.

4)- ديوان ابن شهيد ورسائله تحقيق **محي** الدّين ديب، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1، 1417هـ، 1997م، ص118.

فعلّق ابن بسّام بقوله: "فقام بهذا التّركيب ما نُسيت له حيلة التّطويل"[1]. ثمّ يواصل كلامه إذ يقول: "وبيت **الرّمادي** من قول ابن **عبد ربّه** (ت328هـ):

وَكَأَنَّمَا غَاصَ الأَسَى بِجُفُونِهَا حتّى أَتَاكَ بِلُؤْلُؤٍ مَنْشُورِ"[2]

وقد تحدّث **أبو هلال العسكري** (ت395هـ) عن الأخذ فقال: "إنّ الأخذ هو أن يكسو الشّاعر الألفاظ من عنده، ويوردها في غير حليتها، ويزيد فيها ويحسن تأليف ألفاظها فإن فعلوا ذلك فهم أحقّ بها"[3]، فالنّاقد يجيز الأخذ إذا زاد فيه صاحبه، ويحسن تأليفه. كما تحدّث عن قبح الأخذ فقال:" وقبح الأخذ أن تعمد إلى المعنى فتتناوله بلفظه كلّه، أو أكثره، أو تخرجه في معرض مستهجن والمعنى إنّما يحسن بالكسوة[4]، فالأخذ غير المستحبّ هو الذي يأخذه الشّاعر دون زيادة فيه، وإنّما يستحسن الأخذ بالكسوة أي أن يعطي الشّاعر الألفاظ معناها من عنده، ويتصرّف فيها كما يشاء، وضرب أمثلة كثيرة منها قول **أبي الطيّب المتنبّي**:

وَمَا المَوْتُ إِلاَّ سَارِقٌ دَقَّ شَخْصُهُ يَصُولُ بِلاَ كَفٍّ وَيَسْعَى بِلاَ رِجْلِ

فعلّق ابن بسّام بقوله: أخذه **المعتمد بن عبّاد** فقال:

وَلَكِنَّهَا الأَيَّامُ تُرْدِي بِلاَ ظُبَا وَتُصْمِي بِلاَ نَبْلِ وَتَرْمِي بِلاَ يَدِ

1)- الذخيرة، ابن بسام، 322/1.

2)- ديوان ابن عبد ربّه، تحقيق محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، د.ط، د.ت، ص82.

3)- كتاب الصناعتين: الكتابة والشّعر، أبو هلال العسكري، ص196.

4)- المصدر نفسه، ص229.

ومن الأمثلة كذلك **قول المعرّي:**

كُنْتَ مُوسَى وَافَتْهُ بِنْتُ شُعَيْبٍ غَيْرَ أَنَّ لَيْسَ فِيكُمَا مِنْ فَقِيرٍ

عقّب أبو الحسن: أخذه بعض أهل عصرنا، وهو **حسّان بن المصيصي** فقال **للمعتمد بن عبّاد:**

كَبِنْتِ شعَيْبٍ إِذَا زُفّتْ لِمُوسَى وَلَكِنْ لِلثّرَاءِ هُنَا مَزِيدُ"[1]

ولم يستعمل مصطلح سرقة إلاّ في مرّات قليلة، كقوله في الفصل الذي عقده لابن شهيد وأورد له قصيدة آخرها البيت التالي:

"وَخَيْلٌ تَمَشَّى لِلْوَغَى بِبُطُونِهَا إِذَا جَعَلَتْ فِي المُرْتَقَى الصّعْبِ تَزْلَقِ"[2]

فعلّق بقوله: "وهذا البيت ممّا لم يحسن أبو عامر سرقته، ولا بلغ به طبقته"[3]، ومصطلح سرقة قديم في النّقد العربي فهذا **النّهشلي** يتحدّث عن هذا المصطلح بقوله: "السّرق في الشّعر ما تقلّ معناه دون لفظه، أبعد في أخذه"[4].

أمّا **ابن رشيق** فيعرّف السّرقة بقوله: "السّرق إنّما هو في البديع المخترع الذي يختصّ به الشّاعر في المعاني المشتركة التي هي جارية في عاداتهم، ومستعملة في أمثالهم ممّا ترتفع الظنّة فيه عن الذي يورده أن يقال إنّه أخذه من غيره[5].

---

1)-المصدر نفسه، 78/1.

2)- ديوان ابن شهيد ورسائله، ص97.

3)- الذخيرة، ابن بسام، 319/1.

4)- العمدة في محاسن الشّعر ونقده، ابن رشيق القيرواني، 281/2.

5)-المصدر نفسه، 281/2.

كما استعمل ابن بسّام مصطلحات أخرى للدّلالة على الأخذ منها:

تعليقه على **بيت للمعتمد** يقول فيه:

فَلَوْ عُدْتُمَا لاَخْتَرْتُمَا العَوَذَ فِي الثَّرَى إِذَا أَنْتُمَا أَبْصَرْتُمَا فِي الأَسْرِ

فقال أبوالحسن: وهذا البيت من أشعار النّساء، وأراه **ينظر** إلى قول **الخنساء** في صيغة المبنى وإن خالفه في المعنى"[1]، وهو:

"فَلَوْلاَ كَثْرَةُ البَاكِينَ حَوْلِي عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي"[2]

ويدرج بيتا **لابن شهيد**:

"وَمَا الذِي وَلّى بِهِ البَيْنُ حَسْرَةً بَكَيْتُ وَلَكِنْ حَسْرَةً لِلذِي بَقِي"[3]

يقول: "وقوله (وَمَا الذِي وَلَّى بِهِ البَيْن حَسْرَةً) يلمّح إلى قول **محمد بن هانئ**:

لاَ تَسَلْنِي عَنِ اللّيَالِي المَوَاطِي وَأَجِرْنِي مِنَ اللّيَالِي البَوَاقِي[4]

أيضا مثّل ببيت **للمعتمد** يقول فيه:

مَا سِرْتُ قَطُّ إِلَى القِتَا لِ وَكَأَنَّ مِنْ أَمَلٍ لِلرُّجُوعِ

قال:وقوله(مَا سِرْتُ قَطُّ إِلَى القِتَالِ) كقول **قيس بن الخطيم**:

وَإِنِّى فِي الحَرْبِ الضَّرُوسِ مُوكّلٌ بِتَقْدِيمِ نَفْس لاَ أُرِيدُ بَقَاءَهَا[1]

---

1)- الذخيرة، **ابن بسام** 70/2.

2)- ديوان الخنساء، دار بيروت للطّباعة والنّشر، بيروت، 1398هـ، 1978م، ص84.

3)- ديوان ابن شهيد ورسائله، ص51.

4)- الذخيرة، ابن بسام، 319/1.

كما استعمل مصطلح **احتذى** وذكر قصيدة **لابن درّاج القسطلي** مطلعها:

"كَلاَّ وَقَدْ آنَسْتُ مِنْ هُودٍ هُدًى وَلَقِيتُ يَعْرب فِي القَبُولِ وَحِمْيَرَا

قال أبو الحسن: أراه **احتذى** في هذا حذو أبي الطيّب المتنبيّ في ابن العميد"[2] حيث يقول:

مَنْ مُبْلِغُ الأَعْرَابِ أَنِّي بَعْدَهَا جَالَسْتُ رِسْطَالِيسَ وَالإِسْكَنْدَرَا

وكلمة **منقول** ومن أمثلة ذلك قول **ابن بسّام البغدادي:**

لاَ أَظْلِمُ اللَّيْلَ وَلاَ أَدّعِي أَنَّ نُجُومَ اللَّيْلِ لَيْسَتْ تَغُورُ

لَيْلي كَمَا شَاءَتْ: فَإِنْ لَمْ تَجُدْ طَالَ، وَإِنْ جَادَتْ فَلَيْلِي قَصِيرُ

فعقّب ابن بسّام بقوله: وهذا بجملته **منقول** من قول **علي بن جليل:**

لاَ أَظْلِمُ اللَّيْلَ وَلاَ أَدَّعِي أَنَّ نُجُومَ اللَّيْلِ لَيْسَتْ تَزُولُ

لَيْلِي كَمَا شَاءَتِ:قَصِير إِذَا جَادَتْ وَإِنْ ضَنَتْ فَلَيْلِي طَوِيلُ[3]

بالإضافة إلى مصطلحات أخرى ذكرها في الذّخيرة، حيث أسهب في باب السّرقة إسهابا طويلا، ولكنّنا ذكرنا بعضا من تعليقاته المتعلّقة بهذا الباب. كما تحدّث ابن بسّام عن السّرقة القبيحة ومنها قول **ابن شهيد:**

---

1)- البيت في الدّيوان: **وإنّي في الحرب الضّروس موكّل إقدام نفس ما أريد بقاءها**

(ديوان قيس بن الخطيم، تحقيق ناصر الدين الأسد ، دار صادر بيروت، ص49.

2)- الذخيرة، ابن بسام، 1/74-75.

3 /المصدر نفسه /75/74

وَخَيْلٌ تَمَشَّى لِلْوَغَى بِبُطُونِهَا إِذَا جَعَلَتْ بِالْمُرْتَقَى الصَّعبِ تَزْلَقِ

قال أبو الحسن: وهذا البيت ممّا لم يحسن أبو عامر سرقته، ولا بلغ به طبقته، وهو من قول المتنبّي:

"إِذَا زَلَقَتْ مِشْيَتَهَا بِبُطُونِهَا كَمَا تَمَشَّى فِي الصّعِيدِ الأَرَاقِمِ"[1]

كما ذكر بيتا **لابن فتوح** يقول فيه:

فَكَأَنَّ خَدَّكَ وَالعَذَارَى بِصَحْنِهِ صُبْحٌ جَرَى فِيهِ دُجَى فتحيّرا

قال ابن بسّام: "وما أقبح هذا القبح فإنّه لفظ **تميم بن المعزّ**:

مَا بَانَ عُذْرِي فِيهِ حتّى عُذْرَا وَمَشَى الدُّجىَ فِي صُبْحِهِ فتحيّرا

ب- البديهة والارتجال:

يبدو أنّ إعجاب الأندلسيين والمشارقة بالبديهة كان كبيرا، إذ كان الشّعراء يتقارضون الشّعر في مجالس الأمراء ارتجالا فهذا ابن شهيد الأندلسي يعجب بالبديهة ويعتبرها ميزة، فقد نقل الحميدي في ترجمة عبد الرّحمن بن أبي الفهد الأشجعي قال: "أخبرني أبو عامر أحمد بن عبد الملك الشّهيدي أنّه عمل بحضرته أربعين بيتا على البديهة إلى عبادة ليس فيها حلاف يعجم أوّلها:(حلمك ما حدّ حدّه أحد)"[2]، وأثنى ابن شهيد على الخليفة المستظهر قال:" وكان يتهم

1)- ديوان المتنبي، 389/4.

2)- جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، أبو عبد الله بن أبي نصر الحميدي، الدار المصرية للتأليف والنشر، القاهرة، 278/1

في أشعاره ورسائله حتّى كتب أمان بعليّ بن أبي زيد حين وفد عليه ارتجالا فعجب أهل التميّز منه"[1].

وقد تعرّض ابن بسّام إلى موضوع البديهة في الذّخيرة حين قال:" وقد فرّق حذّاق النّظر بين البديهة والارتجال، فجعلوا الارتجال ما كان في طريق الانهمار والتدفّق الذي لا توقّف فيه، كالذي وقع للفرزدق إذ أمره سليمان بن عبد الملك بضرب عنق أسير رومي..."[2]، وهذا الكلام منقول بجملته من العمدة لابن رشيق حيث يقول: "البديهة ما كان انهمارا وتدفّقا لا يتوقّف فيه قائله، كالذي صنع الفرزدق وقد دفع إليه سليمان بن عبد الملك أسيرا من الرّوم ليقتله..."[3]، فهذا يبيّن أنّ أبا الحسن قد اعتمد على كتاب العمدة لابن رشيق ونقل منه كثيرا إلاّ أنّه لم يحل عليه ولا نبّه على ذلك.

ويواصل ابن بسّام كلامه عن البديهة فيقول: "إنّ البديهة والارتجال في هذه الأشعار الأندلسيّة وإن لم تلحق بالأشعار المشرقيّة ولا فيها كبير طائل ولا تقرب ممّا ألصقته إليها من أشعار الأوائل، فهي نحوي في هذا المجموع الذي انتحيت، وطلقي الذي إليه جريت، ولذلك ما أثبت مذالها وصونها، وكتبت غثّها وسمينها، والأدب طريق يسلكها الصّحيح والجرب، وسوق ينفق فيها الذرّ والمخشلب، ولأخرج من جدّ إلى هزل ومن حزن إلى سهل"[4]، فهو يبيّن تفوّق

---

1)-المصدر نفسه، 26/1

2)- الذخيرة، ابن بسام، 36/4.

3)- العمدة في صناعة الشّعر وآدابه ونقده، 189/1-190.

4)- الذخيرة،بسام ابن 44/4-45.

المشارقة في قول الشّعر ارتجالا" وفضّل ما روي من أخبار المشارقة في هذه على أهل بلده، واعتذر من إيرادها بأن شرط كتابه يقتضي منه سرد أخبارهم على علاتها"[1]، فهو وإن لم يجد أهل أفقه في ارتجال الشّعر إلاّ أنّ خطّة كتابه تجبره على ذلك فهو قد ألّف الذّخيرة من أجل إظهار تفوّق أهل بلده في فنّي الشّعر والنّثر.

وضرب أمثلة كثيرة على ذلك منها" أنّه أُدخل يوما على المنصور وردة لم تستمّ فتح كسامها، فقال فيها **صاعد** على الارتجال:

أَتَتْكَ أَبَا عَامِرٍ وَرْدَةً يُذَكِّرُكَ المِسْكُ أَنْفَاسَهَا
كَعَذْرَاءِ أَبْصَرَهَا مُبْصِرٌ فَغَطَّتْ بِأَكْمَامِهَا رَأْسَهَا

فسرّ بذلكّ المنصور"[2].

ومن ذلك أيضا ايراده لأبيات لابن شهيد في وصف ألثغ:

"مَنْ لِي بِأَلْثَغٍ لاَ يُزَارُ حَدِيثُهُ يُذْكِي عَلَى الأَكْبَادِ جَمْرَةَ مُحْرِقِ
يُنْبِي فَيَنبُو فِي الكَلاَمِ لِسَانُهُ فَكَأَنَّهُ مِنْ خَمْرِ عَيْنَيْهِ سُقِي
لاَ نعش الأَلْفَاظَ مِنْ عَثَرَاتِهَا وَلَوْ أَنَّهَا كُتِبَتْ لَهُ فِي مِهْرَاقِ"[3]

فعلّق ابن بسّام: "قول أبي عامر في صفة الألثغ ممّا أحسن فيه لا سيّما على البديهة"[4].

---

1)- تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، محمد رضوان الداية، ص377-378.

2)- الذخيرة،بسام ابن 17/4.

3)- ديوان ابن شهيد، ص104-105.

4)- الذخيرة،بسام ابن 306/1.

ويذكر ابن بسّام أنّ البديهة لا تصدر إلاّ عن بال مرتاح، ونفسيّة مستقرّة وضرب مثالا على ذلك في قوله:" فصدرت هذه الأشعار يومئد عن ابن عمّار وهو في قيود الحديد، وقالها على البديهة والارتجال في تلك الحال، وبال يناجيه البلبال، قد تيقّن أنّه لا يغلب ولا ينظر إلاّ عن عدوّ ويشمت"[1].

ج- أحكام ذوقيّة عامّة:

هذه الأحكام الذّوقيّة أصدرها ابن بسّام بتأثيرها المباشر في نفسه، ومن أمثلة ذلك قصيدة طويلة ذكرها **لابن درّاج الق**سطلي مطلعها:

لَعَلَّكَ يَا شَمْسُ عِنْدَ الأَصِيلِ شَجَيْتُ لِشُجُوِّ الغَرِيبِ الذَّلِيل

فعلّق أبو الحسن بقوله: "وهذه القصيدة له طويلة وهي من الهاشميّات الغرّ بناها من المسك والذرّ لا من الجصّ والآجر، لا بل خلّدها حديثا على الدّهر وسرّ بها مطالع النجوم والزّهر، لو قرعت سمع دعبل بن علي الخزاعي والكميت بن زيد الأسدي لأمسكا عن القول، وبرئا إليها من القوّة والحول، ولو رآها السيّد الحميري وكثير الخزاعي لأقاماها حجّة بيّنة على الدّعوى ولتلقّيا بشارة على زعمها بخروج الخيل من رضوى وقد أثبت أكثرها إعلانا لجلالة قدرها واستحسانا لعجزها وصدرها"[2]، فهذا الحكم يبيّن مدى إعجاب ابن

1)-المصدر نفسه، 314/1.

2)- السابق المصدر، 635/1.

بسّام بهذه القصيدة، وحكم عليها من زاوية هذا الإعجاب حيث لم يستطع أن يخفي افتتانه بها ويظهر ذلك من خلال تعليقه على هذه القصيدة.

ثم أدرج بيتين **لأبي بكر**(ت540هـ) يقول فيهما:

عَلَيْكَ أَبَا عَبْدِ الإِلَهِ خَلْعَهَا لَهَا البَدْر طَوْقٌ وَالنُّجُومُ دَلاَئِلُ

وَمَا هِيَ إِلاَّ الدَّهْر فِي طُولِ عُمْرِهَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهَا الضُّحىَ وَالأَصَائِلُ

فعقّب ابن بسّام بقوله: "ويا لهذا البيت ما أحسن مذهبه، وأبدع مثواه ومنقلبه، إلاّ أتى الدّهر مسلوب الضّحى والأصائل فلم يزد على أن جلاه في أيّ باطل، لا بل أبرزه في مسوح سوءها ثاكل وليت شعري ما أبقى للدّهر مظلوم بعد ضحاه النّاصعة الديم، آصاله المعتلّة النّسيم، إلاّ بأسود الجلباب وهجيره السّائل اللّعاب؟ ولو قال لممدوحه (وتلك العلا فيها الضّحى والأصائل) لأبرز قصيدته رفافة البرود، وشفاعة العقود، ولأفاد ممدوحه بهذه الكلمة مدحا لا يسعه المقال، ولا نفى به القصائد الطّوال"[1].

هكذا كان النّقد الفنّي عند ابن بسّام متمثّلا في البديع الذي هو قيّم الأشعار، حيث تطرّقابن بسّام إلى مختلف أنواع البديع الذي صادفته حيث شرحها ونبّه عليها، وتتبّعها في أشعار المشارقة والأندلسيين وبعض شعراء الجاهليّة، كما تتبّع السّرقات الشّعرية ونبّه عليها وبيّن افتنانه بالسّرقة التي يزيد فيها صاحبها كما تحدّث عن البديهة والارتجال وكيف جعلهما مقياسين للبراعة وحسن النّظم.

1)- المصدر السابق، 635./2

خاتمة

لا أحد ينكر أنّ الأدب الأندلسي حلقة متّصلة بالأدب العربي، وجزأ لا يتجزّأ من هذا الأدب لكنّه له جذور ضاربة في الآداب المشرقية، و لم يكن إنتاج أندلسي خالص. ويبدو أنّ الأدب في الأندلس قد تطوّر بشكل كبير نتيجة عدّة عوامل منها الحكّام ولمستهم الواضحة في جلب عيون الكتـــب مـــن الآفـــاق، وتشجيعهم للشّعراء بالهدايا المغرية؛ لكن هؤلاء الأدباء قد نهجوا نهج المشارقة في كلّ شيء مع فارق بسيط يتمثّل في خصوصية بيئة الأندلس السّاحرة التي كـــان تأثيرها جليّا في كلّ ما أنتجه الأندلسيين، ونتيجة هذا التّـــأثير الكـــبير دفـــع بالكثيرين إلى محاولة ردّ الاعتبار للآداب الأندلسية، وإظهار تفوّق أهل الجزيـــرة في الشّعر والنّثر.

ومن هؤلاء ابن بسّام الشّنتريني الذي ألّف كتابه الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة لهذا الغرض أي من أجل صرف الأندلسيين عن الآداب المشرقيّة والإقبال على موروثهم والاهتمام به، غير أنّه هو نفسه قد انتصر للآداب المشـــرقية دون أن يشعر حين أخذ مادّة كتابه من بعض كتب المشارقة، وإيراد بعض أشعارهم وتفضيلها أحيانا على أشعار أهل بلده.

ومن النّتائج التي توصّلنا إليها من خلال هذا البحث:

1- أنّ ابن بسّام الأندلسي وكتابه الذّخيرة لم يلقيا الاهتمـــام اللائـــق والدّراسة الوافية.

2- تعتبر سيرة ابن بسّام غامضة بالنّسبة لشخصية مشهورة كشخصية أبي الحسن، وتحتاج إلى إعادة النّظر في بعض زواياها، وذلك بنفض الغبار عـــن بعض الآثار الأندلسية التي توجد في مختلف المكتبات العربية والعالمية.

3- يعدّ كتاب الذّخيرة من أهمّ الكتب الأندلسية على الإطلاق في مجال التّاريخ والأدب والنّقد، وذلك لاحتوائه على أخبار نادرة لا توجد ف كتـــب أخرى، ووصف دقيق وشامل لكلّ ما كان يجري في جزيـــرة الأنـــدلس مـــن أحداث سياسية غيّرت تاريخ العرب والمسلمين في تلك الحقبة.

4- كان للأخلاق منهجا وسلوكا في حياة ابن بسّام ووظّفها في كـــلّ شيء حتّى في النّقد، ومنها استقى أحكامه في مختلف الأغراض الشّعرية كالهجاء والغزل.

5- كان ابن بسّام يفتتن بالبديع ويعدّه مقياسا للمفاضلة ين الأشـــعار وهذا ما دفعه إلى تتبّعه في أشعار المشارقة وأهل بلده وحتّى في أشعار الجاهليين مع شرح لبعض أنواعه.

6/ يمكن القول أنّ كتاب "الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة" لم يكـــن كتابا نقديا خالصا، وإنّما هو كتاب ترجم وسير لأعلام الأندلس وأهل عصره، لكنّ تدخّلات ابن بسّام وتعليقاته هي التي جعلت من المؤلف مرجعا في النّقد إذ أنّ الحسّ النّقدي وجد طريقه إلى ابن بسّام.

وأخيرا نأمل أن يكون بحثنا حقّق بعض أهدافه وهو التّعريف بابن بسّام الأندلسي وكتابه الذّخيرة، والتّعرّف على أنواع النّقد التي مارسها أبو الحسن في الكتاب، ولا ندّعي أنّنا قد وفّينا الموضوع حقّه، فإن أصـــبنا فبتوفيـــق الله أوّلا وتوجيهات أستاذي ثانيا، وإن قصّرنا فحسبنا أنّنا بحثنا واجتهدنا، و أخلصـــنا وأجرنا أجر من اجتهد وثابر، وما التّوفيق إلاّ من عند الله سبحانه وتعالى.

قائمة المصادر والمراجع

أ- المصادر والمراجع:

1- أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني، تحقيق مصطفى شيخ، وميسر عقاد، مؤسسة الرسالة ناشرون، الطبعة الأولى، 1468هـ، 1968م.

2- الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، خير الدين الزّركلي، تحقيق: عبد السلام علي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة السّابع عشر، 2008.

3- الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني، طبعة بولاق الأصلية، نشر صلاح يوسف الخليل، دار الفكر للجميع، بيروت، 1390هـ، 1970م.

4- البديع في البديع: عبد الله بن المعتز، تحقيق اغناطيوس كراتشفوفسكي، دار المسيرة الطبعة الثانية، 1399هـ، 1979م.

5- البيان والتبيين: أبو عثمان عمرو بن الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، الجزء الأوّل، مكتبة الخانجي، مصر، الطبعة الرابعة، 1459هـ، 1975م.

6- التكملة لكتاب الصّلة: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر القضاعي البلنسي المعروف بابن الأبّار، القسم 1، من طبعة الشيخ قدارة زيدين، مجريط، 1886م، 1989م، ومن طبعة قتزاليش، بلنسية، مجريط، 1915م، تحقيق ألفريد بل، وابن أبي شنب، مطبعة الشّرقية للأخويين بونطان، 1637هـ، 1919م.

7- التوابع والزوابع: ابن شهيد الأندلسي، تحقيق بطرس البستاني، دار صادر بيروت، 1400هـ، 1980م.

8- جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس: أبو عبـد الله بـن أبي نصـر الحميدي، الدار المصرية للتأليف والنشر، القاهرة، 1966م.

9- الحيوان: أبو عثمان عمرو بن بحر بن الجاحظ، تحقيق عبـد السـلام هارون، دار الجيل، بيروت، ودار الفكر للطّباعة والنشر، 1408هـ، 1988م.

10- ديوان أبي تمّام: تقديم وشرح، محي الدين صبحي، مج2، دار صادر، بيروت، 1997م.

11- ديوان أبي تمام: شرح إيليا الحاوي، دار الكتاب اللبناني، بيوت، الطبعة الأولى، 1981م.

12- ديوان: أبي تمام شرح الخطيب التبريزي، المجلد الأول تحقيق محمد عبد عزام، دار المعارف، الطبعة الخامسة.

13- ديوان: ابن الرومي، شرح مجيد طراد، المجلد الأول، تحقي محمد عزام، دار المعارف، الطبعة الخامسة.

14- ديوان: ابن خفاجة، تحقيق سيد غازي، الطبعة الثانية، منشأة المعارف، الإسكندرية.

15- ديوان: ابن زيدون، تحقيق كرم البستاني، دار صادر للطّباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1384هـ، 1964م.

16- ديوان: ابن عبد ربّه، تحقيق محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة.

17- ديوان: ابن شهيد ورسائله، تحقيق محي الدين ديب المكتبة العصـرية، صيدا، بيروت، الطبعة الأولى، 1417هـ، 1997م.

18- ديوان: أبي نواس، دار صادر.

19- ديوان: أبي الطيب المتنبي، شرح أبي البقاء العكبري، طبع وتصحيح ووضع فهارس مصطفى السقا إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي الجزء الثاني، دار الفكر.(+ الجزء الثالث والجزء الرابع).

20- ديوان زهي بن أبي سلمى، دار صادر، بيروت.

21- شرح ديوان جرير: محمد اسماعيل عبد الله الصاوي،دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت، الجزء1.

22- ديوان الحطيئة: برواية وشرح ابن السكيت تحقيق د.نعمان محمد أمين طه، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى، 1408هـ، 1987م.

23- ديوان الخنساء، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1398هـ، 1978.

24- ديوانا عروة بن الورد والسّموأل، دار صادر، بيروت، د.ط، د.ت

25- ديوان عنترة ابن شداد: شرح حمدو طمّاس، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1425هـ، 2004م.

26- ديوان: قيس بن الخطيم، تحقيق ناصر الدين الأسد، دار صادر، بيروت.

27- ديوان: امرئ القيس، تحقيق ياسين الأيوبي، المكتب الاسلامي، الطبعة الأولى، 1419هـ، 1998.

28- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: أبو الحسن علي بن بسام الأندلسي، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بـيروت، 1418هـ، 1997م (جميع الأقسام).

29- الذيل والتّكملة: عبد الواحد المراكشي تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1973م.

30- رايات المبرزين وغايات المميّزين: أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد الأندلسي، تحقيق محمد رضوان الداية، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، الطبعة الأولى.

31- زهر الآداب وثمر الألباب: أبو إسحاق إبراهيم بن علـي الحصـري القيرواني، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، الطبعة الثانية، المجلد الأول.

32- الشعر والشعراء: ابن قتيبة، الجزء الأول، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، 1423هـ، 2003م.

33- كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر، أبوهلال العسكري، تحقيق علـي محمد البجاوي، ومحمد الفضل ابراهيم، المكتبة العنصـرية، بـيروت، 1419هـ.

34- طبقات النحويين واللغويين: أبو بكر محمد بـن الحسـن الزبيـدي الأندلسي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية.

35- طبقات فحول الشعراء: ابن سلام الجمحـــي، دار النهضـــة العربيـــة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1969م.

36- طوق الحمامة في الإلفة والألاّف: ابن حزم، تحقيق صـــلاح الـــدين القاسمي، دار سلامة للطّباعة والنشر والتوزيع، تونس.

37- العقد الفريد: ابن عبد ربّه، تحقيق عبد الحميد الرحيني، المجلد الثـــاني، منشورات علي بيضون، دار الكتب العلمية، 1417هـــ، 1991م.

38- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ابن رشيق القيرواني، تحقيـــق محمد محي الدين عبد المجيد، دار الجيل، الطبعة الخامسة، 1401هـــــ، 1981م.

39- المعجب في تلخيص أخبار المغرب: عبد الواحد المراكشي، منشورات علي محمد بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الثانيـــة، 1427هـــ، 2005م.

40- المغرب في حلى المغرب: أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1955م.

41- المقدمة ، ابن خلدون دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، 2000م.

42- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: أحمد بـــن محمـــد المقّـــري التلمساني، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

43- نقد الشعر: قدارة بن جعفر، مطبعة الجوائب، قســـطنطينية، الطبعـــة الأولى، 1302هـــ.

44- ابن بسام الأندلسي وكتاب الذخيرة: دراسة في حياة الرجل وأهـمّ جوانب الكتاب، علي بن محمد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائـر، 1989م.

45- الاتجاه الأخلاقي في النقد العربي حتى نهاية القرن السـابع الهجـري: محمد قريشي الحـارثي، مطبوعـات نـادي مكـة الثقـافي الأدبي، 1409هـ، 1989م.

46- تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف والمرابطين، إحسان عبـاس، دار الشروق للنشر والتوزيع، 1997م.

47- تاريخ الأدب العربي: الأدب في الأندلس والمغرب: عصر المـرابطين والموحدين عمر فروخ، الجزء الخامس، دار العلم للملايـين، الطبعـة الثالثة، 1997م.

48- تاريخ النقد الأدبي عند العرب: نقد الشـعر، إحسـان عبـاس، دار الأمانة، بيروت، الطبعة الأولى، 1981م.

49- تاريخ النقد الأدبي في الأندلس: محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، 1401هـ، 1981م.

50- تاريخ النقد الأدبي والبلاغي حتى القرن الرابع الهجري، محمد سـلام زغلول، دار المعارف، مصر، 2002م.

51- تيارات النقد الأدبي في الأندلس في القرن الخامس الهجري: مصطفى عليان عبد الرحيم، مؤسسة الرسالة، الطبعـة الأولى، 1404هـ، 1984م.

52- دراسات في الأدب الأندلسي: إحسان عباس- داوود القاضي- ألبير مطلق الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس، 1396هـ،1976م.

53- دراسة في مصادر الأدب، د. طاهر أحمد مكي،دار الفكر العربي، ط8، 1419هـ، 1999م.

54- مصادر الأدب الأندلسي، أحمد يوسف خليفة، دار الوفاء لدينا للطباعة والنشر، ط1، 2002م.

55- الصورة الأدبية: تاريخ ونقد، علي صبح علي، دار إحياء الكتب العربية.

56- الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، جابر عصفور، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1974م.

57- علم البديع، عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1405هـ، 1985م.

58- مصار الأدب الأندلسي: أحمد يوسف خليفة، دار الوفاء لدينا للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 2002م.

59- الموجز في الأدب العربي وتاريخه: الأدب في الأندلس والمغرب، وأدب الانحطاط، حنا الفاخوري، المجلد الثالث، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثالثة، 2003م.

ج- الرسائل الجامعية :

60- ابن حزم أديبا وناقدا، رسالة ماجيستير مخطوطة بجامعة دمشق، اعداد الطالب محمد بن اعمر، جامعة دمشق، 1987م.

61- مفهوم الصدق في النقد العربي القديم، رسالة ماجيستير مخطوطة بجامعة حلب، إعداد الطالب: محمد بولعراوي، جامعة حلب.

62- القضايا النقدية عند فلاسفة الأندلس، رسالة ماجستير مخطوطة بجامعة باتنة، اعداد الطالب محمد التجاني محجوبي، جامعـــة باتنـــة، 2008، 2009م.

د- المجلات:

63- مجلة أمّ القرى لعلوم الشريعة واللغة العربيـــة وآدابهـــا، الجـــزء 18، العدد37، جمادى الثانية، 1424هـــ، مقال بقلم شـــريف راغـــب علاونة.

هـ- مواقع الكترونية:

64- hht//:ar:wikipidia.org/wiki.

فهرس المحتويات

مقدمة:.....أ

المدخل

الحركة النّقدية في الأندلس من القرن الأوّل الهجري إلى القرن السّادس الهجري

1/ الحركة النقدية في القرنيين الأوّل والثّاني الهجر.....2-8

2/ المؤدّبون: 8

مسجد قرطبة: 8-9

أثر القالي: 9-10

أثر المتنبي والمعري: 10

أثر الخلفاء: 11

النّقد في القرن الخامس الهجري:.....11-15

النقد في القرن السادس الهجري:.....15-17

الفصل الأوّل

ابن بسّام الشّنتريني وكتاب الذّخيرة

1-سيرة ابن بسّام الشنتريني.....19-25

أ/ حياته: 25-27

ب/ وفاته: 28

ج/ مؤلّفاته: 28
2- قراءة في كتاب الذّخيرة: 47-29
أ/ دواعي تأليف الكتاب: 33-30
ب/ عنوان الكتاب:.....35-33
ج/ شهرة الكتاب: 37-36
د/ مصادر ابن بسام في تأليف الذخيرة: 37
هـــ/ منهج الكتاب:.....47-38

الفصل الثاني

النّقد الأدبي والدّيني والأخلاقي

1- **النّقد الأدبي**:.....56-49
أ/ موقفه من الأدب:.....50-49
ب/ الدعوة إلى الجديد:.....52-50
ج/ موقفه من الموشحات:.....54-52
د/ النقد التاريخي:.....56-54
2/ **النقد الأخلاقي**:.....73-56
أ/ رأيه في ابن حيّان المؤرّخ:.....57-56
ب/ موقفه من الهجاء:.....65-58
ج/ موقفه من شعر الغزل:.....69-65

د/ النّقد الدّيني:.....69-73

الفصل الثّالث

النّقد الفنّي

1- **البديع**:.....75-77
أ/ التشبيه:.....78-85
ب/ الاستعارة:.....85-87
ج/ الاستطراد:.....87-89
د/ التقسيم:.....89
هـــ/ المماثلة:.....90
ز/ التتميم:.....91
ح/ المعاقدة:.....91-92
2- **اللفظ والمعنى**:.....92-93
أ/ الأخذ والسرقة:.....94-100
ب/ البديهة والارتجال:.....100-103
ج/ أحكام ذوقية عامّة:.....103-105
خاتمة.....107-109
قائمة المصادر و المراجع:.....100-118

فهرس المحتويات:.....119-122

Abstract:

Ibn Bassam el chantarini has pupluched his book titled« el dakhira fi mahasine ahl djazzira » to traduce the novelists ofhisera ; and to reform about their vergers and their last prim to writing and literatures ; to slime them for imitation the Easters and to attention the rewriting .

In this study we emphasized on the critical felt of the book .

Key words : ibn bassam el chantarini, el dakhira fi mahasineahl el djazzira criticism.

Résumé :

Ibn Bassam el chantarini publie le livre « el dakhira fi mahasine ahl el djazira » pour introduire les ècrivins et les poetes de son contemporaire ; et pour récrire son époques pour leurs imitation à east.

Mais cette étude à borné sur le coté criticisme.

Les mots clé : ibn bassam el chantarini el dakhira fi mahasine ahl el djazira criticisme.

الملخص :

ألّف ابن بسّام كتاب "الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة" للتّعريف بأدباء عصره وذكر فضائلهم ومآثرهم، وفي الوقت نفسه يعاتبهم على اقتفاء أثر المشارقة وإهمال أدبهم.لكن دراستنا للكتاب ركّزت علـــــى الجـــانب النّقـــدي في الذّخيـــرة.

الكلمات المفتاحية : ابن بسام الشّنتريني، الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة، النقد.

ملخص

لا شكّ أنّ الأدب العربي في المشرق قد استولى على اهتمام الدّارسين، غير أنّ الأدب الأندلسي لم يصل إلى ذلك الاهتمام الكبير الذي لقيه نظيره في المشرق. وهذه اللامبالاة كانت من الأندلسيين أنفسهم حين أعرضوا عنه وراحوا يتهافتون على أدب المشارقة.

ومن الواضح أنّ الأدب الأندلسي وصل إلى مرحلة متطوّرة جدّا حيث وصلت إلينا كتب لا بأس بها وفي مختلف الاختصاصات، ومن تلك المؤلّفات كتاب "الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة" لابن بسّام الشّنتريني الأندلسي.

من هو ابن بسّام:

يعتبر ابن بسّام من أدباء القرن الخامس للهجرة هذا القرن الذي ازدهرت فيه الحركة الثّقافية بكلّ أجناسها نتيجة التأثير المشرقيّ الكبير والمنافسة الشّديدة بين الأدباء والشّعراء من كلا الجانبين. وابن بسّام من الذين حاولوا ردّ الاعتبار للآداب الأندلسية فألّف كتابه المشهور "الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة".

وتبقى سيرة ابن بسّام الشّنتريني غامضة بالنّسبة للباحثين ذلك أنّ المؤلفات القديمة صرفت النّظر عنه لأسباب تبقى مجهولة واكتفت فقط بالإشارة إليه وإلى الكتاب في أسطر عديدة. لكنّنا وجدنا بعضها في كتب متفرّقة منها ما قاله **ابن سعيد**(673هـ) وهو من معاصريه: كان مستوطنا اشبيلية وأظنّه منها.([1]) فهذا يدلّ على أنّ ابن سعيد يجهل كلّ شيء يتعلّق بأبي الحسن عدا كونه يقيم بإشبيلية وربّما هو منها.

ويقول **المقّري** في السّياق ذاته:..وقال أبو الحسن علي بن بسّام الشّنتريني صاحب الدّخيرة وشهرته تغني عن ذكره، ونظمه دون نثره.([2]) فحديث المقّري عن أبي الحسن يبيّن أنّ هذا الأخير لم يجد ما يؤرّخ به لابن بسّام سوى أنّه من شنترين وأنّه صاحب كتاب الدّخيرة، على الرّغم من أنّ المقّري (ت.1041م) أتى بعده بزمن، فهل هذا يعني أنّه لم تكن هناك ذكر لسيرة ابن بسّام في المؤلّفات القديمة، أو إنّ شهرته بلغت الآفاق حيث لم يجد بعض المؤرّخين داع من التّرجمة له؟

1/ ريات المبرزين وغايات المميّزين، أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد الأندلسي، تحقيق محمد رضوان الداية، دار طلاس للدّراسات والترجمة والنشر، ط1، ص63.

2/ نفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب، أحمد بن محمد المقّري التلمساني،تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت،458/3.

لكن الذي يحيّرنا هو أنّه لا توجد ترجمات لابن بسّام لا في كتاب الصّلة **لابن بشكوال** (ت.578هـ) ، ولا في كتاب بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس **للضّبي** (ت.599هـ)، ولا في كتاب التّكملة لكتاب الصّلة **لابن الأبّار** (ت.635هـ) مع أنّ هذه المؤلّفات ترجمت لأدباء كثيرين عاصروا أباالحسن أو أتوا بعده.

وعلى ما يبدو أنّ تاريخ مولده كان سنة(460هـ) في بيت أصل وشرف، وهذا ما يؤكده قول **د. عمر فرّوخ**: "...وقد ولد ابن بسام في شنترين في الأغلب بعيد 460هـ-1087م في أسرة غنيّة ووجيهة". ([3])

وتقسّم حياة ابن بسام إلى مرحلتين **المرحلة الأولى** قبل سقوط شنترين **والمرحلة الثّانية** بعد سقوطها. أمّا حياته في شنترين فكانت حياة كريمة فهو ولد في بيت عزّ وشرف وذليل ذلك قوله في الذّخيرة: "وقد كنّا غنينا هنالك بكرم الانتساب عن سوء الاكتساب، واجتزأنا بمذخور العتاد عن التقلّب في البلاد إلى أن نثر علينا الرّوم ذلك النّظام، ولو ترك القطا ليلا لنام".([4]) فهذه الحالة الجيّدة سهّلت لابن بسّام التعلّم والتّثقيف فهو قد حفظ القرآن شأنه شأن أقرانه وكان له اهتماما بالأدب فراح يتردّد على المجالس العلمية طلبا للعلم والمعرفة، ثمّ رحل إلى لشبونة سنة(477هـ) للغرض نفسه.

أمّا حياته بعد سقوط مدينة شنترين فهي مرحلة صعبة وتمتدّ من(485هـ)-(494هـ)، فالمدينة سقطت من أيدي المسلمين سنة(485هـ)([5]) وبعد هذه النّكبة توجّه أبو الحسن إلى إشبيلية على حسب روايته:" حتّى خلصت خلوص الزّرقان من سراره، وفزت فوز القدح عند قماره، فوصلت حمص بنفس قد تقطّعت شعاعا وذهب أكثرها التياعا، وليتني عشت منها بالذي فضلا فتغرّبت بها سنوات أتبوّأ منها ظلّ الغمامة وأعيا بالتّحوّل عنها عيّ الحمامة ولا أنس إلاّ الانفراد ولا تبلّغ إلاّ بفضلة الزّاد."([6]) فأبو الحسن كانت وجهته إشبيلية أين عاش حياة صعبة بدون مأوى ولا مال ولا أصدقاء.

أمّا سنة وفاته فلم تختلف فيها كتب التّاريخ فهذا المقّري يذكر: "أنّ وفاته تأخّرت إلى سنة اثنين وأربعين وخمسمائة".([7]) ويذكر **د. طاهر مكّي** التّاريخ نفسه

3/تاريخ الأدب العربي: الأدب في المغرب والأندلس: عصر المرابطين والموحدين،د. عمر فرّخ، ج5، دارالعلم للملايين، ط1997،3م، ص273.

4/ الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة، أبو الحسن علي بن بسّام الأندلسي، تحقيق إحسان عباس، دار الثّقافة، بيروت، 1418هـ، 1997م،19/1.

5/ ينظر: ابن بسام الأندلسي وكتاب الذخيرة : دراسة في حياة الرجل وأهمّ جوانب الكتاب، علي بن محمد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989م،ص37-38.

6/ الذخيرة، ابن بسام،19/1-20.

فيقول : "إنّه توفّي سنة 542هـ الموافق لـ1148م"([8]) فحتّى الحديث عن وفاته كان مختصرا وكأنّ المتوفىّ واحدا من عامّة النّاس.

مؤلّفاته:

لا نعرف شيئا عن مؤلّفات ابن بسّام سوى كتاب الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة وهو الوحيد الذي وصل إلينا من بين مؤلّفاته، لكنّه يذكر بعض المؤلّفات في الذّخيرة منها:

الاعتماد على ما صحّ من شعر المعتمد بن عبّاد
الاكليل المشتمل على شعر عبد الجليل
سلك الجواهر من ترسيل ابن طاهر
نخبة الاختيار من أشعار ذي الوزارتين أبي بكر بن عمّار

وكتاب الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة هو الكتاب الأهمّ الذي وصل إلينا والذي اشتهر به، حيث ألّفه سنة 500هـ وهذا حسبما جاء في معرض حديثه عن **أبي بكر بن الملح**، حيث يقول: "ومدّ لأبي بكر هذا في العمر وعاش إلى وقت تحريري هذا المجموع سنة خمسمائة".([9]) لكن ربّما كانت فكرة تأليفه تراوده قبل هذا، وفي مؤلّفه ما يدلّ على ذلك ومنها قوله في الفصل الخاص الأديب **أبي جعفر أحمد بن الدّودين البلنسي**: "وهوأحد من لقته وشافهته وأملى عليّ نظمه ونثره لشبونة سنة سبع وسبعين..."([10]) ويؤكّد ظنّنا قوله في القسم الثّاني من الذّخيرة، ومن الحسن في تشبيه الخيل بالبحر قول بعض أهل العصر وهو الأديب **أبو بكر بن العطّار اليابسي** من شعر أنشدنيه لنفسه ببطليوس سنة ستّ وثمانين"([11]). فهذا الكلام يؤكّد أنّ أبا الحسن كان يجمع مادة كتابه قبل سنة خمسمائة للهجرة، أي قبل أن يخرجه لنا في صورته النّهائية.

والكتاب قسّمه صاحبه إلى أربعة فصول كما فعل الثّعالبي في اليتيمة، **فالقسم الأوّل** يحتوي على أربعة وثلاثين أديبا وشاعرا من شعراء ووزراء قرطبة وما يصاقبها من بلاد متوسّطة الأندلس، ثمّ **القسم الثّاني** ذكر فيه ابن بسّام ستّة وأربعين أديبا وشاعرا ووزيرا لأهل الجانب الغربي من الأندلس وأهل إشبيلية أمّا **الفصل الثّالث** فكان للجانب الشّرقي من الأندلس،و أخيرا **القسم الرّابع** فقد خصّصه لمن طرأ على جزيرة الأندلس من إفريقية والشّام والعراق.

---

[7]/ نفح الطيب، المقّري،458/3.

8/دراسة في مصادر الأدب: د. طاهر أحمد مكّي، دار الفكر العربي، ط1419،8هـ، 1999م.

[9]/ الذخيرة، ابن بسام، 452/1.

[10]/ المصدر نفسه، 703/3.

[11]/ المصدر السّابق،464/2-465.

والواضح أنّ أبا الحسن كان يجمع مادّة كتابه في قرطبة سنة 494هـ، أمّا سنة فراغه من تأليفه فكان في أواخر سنت 503هـ. وقد استغرق أربع سنوات لإنهائه.

أمّا دواعي تأليف الدّخيرة فكانت متباينة، فهو قد ألّف كتابه لمعاتبة أهل بلده على السّعي وراء الآداب المشرقيّة فيقول: "مازال في أفقنا هذا الأندلسي القصيّ إلى وقتنا هذا من فرسان الفنّيين وأئمّة النّوعين، قوم هم ما هم طيب مكاسر وصفاء جواهر، وعذوبة موارد ومصادر، لعبوا بأطراف الكلام المشقّق لعب الدّجى بجفون المؤرّق، وحدوا بفنون السّحر المنمّق حذاء الأعشى ببنات المحلّق فصبّوا على قوالب النّجوم وغرائب المنثور والمنظوم وباهوا غرر الضّحى والأصائل بعجائب الأشعار والرّسائل، نثر لو رآه البديع لنسي اسمه واجتلاه ابن هلال لولاه حكمه، ونظم لو سمعه كُثير ما نسب ولا مدح، أو تتبّعه جرول ما عوى ولا نبح، إلاّ أنّ أهل الأفق أبوا إلاّ متابعة أهل المشرق"([12]) فابن بسّام يذكر تفوّق أهل أفقه في فنّي النّثر والشّعر ومع ذلك يلهثون وراء المشارقة ويقوم كتاب الدّخيرة على مذهبين نقديين كلتاهما يتّصل بابن حزم (ت.456هـ) أحدهما:" الدفاع عن تراث الأندلس الأدبي والثّاني النّظرة الأخلاقية في الحكم على بعض الفنون الشّعرية"([13]) ويظهر هذا في ثنايا الكتاب حيث يتحدّث ابن بسام عن سبب تأليفه للكتاب في اكثر من موضع، كما أنّ نظرته الأخلاقية في الحكم على بعض الفنون الشّعرية واضح جدّا.

النّقد في كتاب الدّخيرة في محاسن أهل الجزيرة:

والمتصفّح لكتاب الدّخيرة في محاسن أهل الجزيرة يدرك للوهلة الأولى أنّه ليس كتابا نقديا لأنّ صاحبه يذكر في المقدّمة أنّه لسان منظوم ومنثور غير أنّ أبا الحسن في الحقيقة طرح فيه- بالإضافة إلى ما جمع- آراءه النّقدية وتدخّلاته في مختلف القضايا الأدبية والأخلاقية والجمالية والفنّية، ومن تلك المواقف:

1/ موقفه من الأدب:

كان موقف ابن بسام من الأدب غريب جدّا كون أبي الحسن أديب غير أنّه تنكّر للأدب وتبرّأ منه فقال بصريح العبارة:" وحقائق العلوم أولى بنا من أباطيل المنثور والمنظوم"([14]) ثمّ يقول في الصّدد نفسه:" وبدأت بتذكر الكتّاب إذ هم

---

[12]/ المصدر السابق،1/11-12

13/ تاريخ النقد الدبي عند العرب: نقد الشّعر من القرن الثاني إلى القرن الثّامن الهجري، د. إحسان عباس، دار الشّروق للنّشر والتّوزيع، ط1،2001م،ص509

صدور في أهل الآداب"([15]) فهو يفضّل النّثر على الشّعر ويقدّم الكتاب على الشّعراء، حيث نجده يجهر برأيه في الشّعر في مواضع كثيرة من الكتاب فيقول:" ومع أنّ الشّعر لم أرضه مركبا ولا اتّخذته مكسبا، ولا ألفته مثوى ولا منقلبا إنّما زرته لماما ولمحته تهمّما لا اهتماما، رغبة بعزّ نفسي عن ذلّه وترفيعا لموطئ أخمصيّ عن محلّه، فإذا شعشعت راحه ودأبت أقداحه، لم أذقه إلاّ شميما ولا كنت إلاّ على الحديث نديما ومالي وله وإنّما أكثره خدعة محتال، وخلعة مختال جدّه تمويه وتخييل وهزله تدليه وتضليل..."([16]) فهذا الموقف من الشّعر فيه من القسوة مايدلّ على أنّ النّاقد يمقته لما فيه من نفاق وتملّق وكذب، إذ أنّ أخلاقه لم تكن تسمح له بمعاقرته، وهذا الرّأي لا ينطبق على الشّعر كلّه بل هناك أغراض معيّنة مثل الهجاء والغزل ولّدت لديه هذا النّفور من الشّعر.

الدّعوة إلى الجديد:

يبدو أنّ ابن بسّام من الذين دعوا إلى نبذ القديم والإقبال على الجديد، فهو كان صريحا جدّا في دعوته هذه إذ يقول في مقدّمة الكتاب:" إذ كلّ مردّد ثقيل وكلّ متكرّر مملول"([17]) فتكرار ما قاله القدماء يجلب الملل، ويواصل حديثه فيقول:" وقد مجّت الأسماع(يا دار ميّة بالعلياء فالسّند)، وملّت الطّباع (لخولة أطلال ببرقة ثهمد)، ومحت (قفا نبك) في يد المتعلّمين)، ورجعت على ابن حجر(يعني امر القيس) بلائمة المتكلّفين فأمّا (أمن أمّ أوفى) فعلى آثار من ذهب العفا، أما آن أن يصمّ صداها؟ ويسأم مداها"(18) "وكأنّ النّاقد يخوض معركة شرسة ضدّ الشّعر القديم الذي كان مفخرة العرب وديوانهم، وهو يشمل بحملته هذه فحول الشّعراء. ويواصل ثورته فيقول:" وكم من نكتة أغفلت الخطباء، وربّ متردّم غادرته الشّعراء، والإحسان غير محصور، وليس الفضل على زمن بمقصور، وعزي على الفضل أن ينكر، تقدّم به الزّمان أو تأخّر، لحى الله قوله: الفضل للمتقدّم، فكم دفن من إحسان وأخمل من فلان، ولو اقتصر المتأخّرون على كتب المتقدّمين لضاع علم كثير، وذهب أدب غزير"(19)

موقفه من الموشّحات:

كان موقف ابن بسّام من الموشّحات متذبذب جدّا، فهو مرّة يستحسنها ويصفها بأنّها:" مصونات الجيوب بل القلوب"(20) ومرّة أخرى يمجّها

---

[14]/ الذخيرة، ابن بسام،18/1.
[15]/ المصدرالسابق، 32/1.
[16]/ المصدر نفسه،18/1.
[17]/ المصدر نفسه،13/1.
[18]/ المصدر نفسه،13/1.
[19]/ المصدر نفسه:13/1-14.

ويسقطها من الدّخيرة. ويبدو أنّ نفور النّاقد من الموشّحات كونها على غير أعاريض العرب وألفاظها باللّغة العامّية.

النّقد التّاريخي:

خصّص ابن بسّام حيّزا للأخبار التّاريخية وكثيرا ما كان يعلّق على بعض أخبار التّاريخ، من ذلك دحره للتّهمة التي ألصقها بعض الحاسدين بشاعر الرّسول صلىّ الله عليه وسلّم- حسّان بن ثابت حين وصفوه بالجبن ويفصّل لنا هذه الواقعة في الفصل الذي عقده **لحسّان بن المصيصي** وذكر له هذا البيت:

ومالحروبُ ومثلي أن يشاهدهَا وإنّما أنا حسّان وأنت علي

فابن المصيصي يعتذر عن المشاركة في الغزو ويشبّه نفسه بحسّان بن ثابت،فردّ عليه النّاقد واتّهمه بالتّاريخ حين يقول:" وأظنّ حسّانا هذا لم يكن له علم بالسّير ولا انصراف بعلم الخبر"(21) ثمّ يشرح التّهمة الملفّقة ضدّه، ويبيّن كيف أنّ حسّان بن ثابت لم يكن جبانا ولو كان كذلك لعيّره به في الجاهلية ولم يكن شيئي تعايرون به أشدّ من الجبن.

النّقد الأخلاقي:

مارس ابن بسام النّقد الأخلاقي واتّخذ من الأخلاق معيارا له في كلّ شيئ حتّى في الحكم على بعض الأغراض الشّعري منها:

الهجاء:

كان موقف ابن بسّام من غرض الهجاء قاسيا جدّا ذلك أنّ هذا الغرض قد فقد المهمّة النّبيلة التي وجد لأجلها المتمثّلة في بناء مجتمع متخلّف يقوم على القيم الفاضلة، ولذلك وقف منه موقفا خلقيّا فصان كتابه الدّخيرة في محاسن أهل الجزيرة لهذا الغرض إذ يقول:" ولمّا صنت كتابي هذا عن الهجاء وأكبرته أن يكون ميدانا للسّفهاء أجريت هاهنا طرفا من ملح التّعريض"(22)فالنّاقدقد نزّه كتابه عن الهجاء ولم يجعل منه ميدانا للسّفهاء، ولم يكتف باخلاء كتابه من الهجاء بل لام بعض الأدباء على إدراجه في مؤلّفاته. ويذكر إحسان عبّاس السّبب وراء ذلك فيقول:" تجنُّب ابن بسّام إيراد الهجاء في كتابه أمر نظري، إذ أنّ طبيعة بعض الأشعار والحكايات المتّصلة بها لا تمكّنه من أن يبرّ بوعده تماما، ومن الطّريف أنّ التعفّف وجد طريقه إلى الشّاعر لا إلى النّاقد فحسب، فصرف عنه **ابن خفاجة وابن حميديس** ومهما نقل يعجز الشّاعر عن مزاولة هذا الفنّ، فلا بدّ من أن نجد له أساسا دينيّا في نفسه، أمّا

---

[20]/ المصدر نفسه،462/1.

[21]/ المصدر السابق،440/1.

[22]/ المصدر نفسه، 480/1.

لدى ناقد يؤرّخ أدب عصره مثل ابن بسّام فهذا عامل آخر في إقصاء الهجاء وذلك هو حرص النّاقد على المواضعات والعلاقات الاجتماعية، وهو يؤرّخ للأحياء من معاصريه"(23)وربّما أصاب **د.إحسان عبّاس** في إيجاد عذر مقنع لابن بسّام ذلك إنّ أبا الحسن كان حريصا على العلاقات الاجتماعية بين أباء بلده ولخوفه من أن يكون سببا للفتنة بين الشّعراء والكتّاب.

وقد قسّم النّاقد الهجاء إلى قسمين:" **أوّله** هجو الأشراف وهو مالم يبلغ أن يكون سبابا أو هجوا مستبشعا، وهو طأطأ قديم من الأوائل وثلّ عرش القبائل إنّما هو توبيخ وتعبير وتقديم وتأخير."(24) والقسم الثّاني هو الهجاء الذي الذي أوجده جرير وطبقته وكان يقول(يعني جرير) وهذا النّوع لم يهدم قطّ بيتا ولا عيّرت به قبيلة وهو الذي صُنّا عنه هذا المجموع، وأعفيناه أن يكون فيه شيء منه"(25) وقسم فرعيّ هو التّعريض الذي استحسنه أبو الحسن وذكر طرفا منه. وكان **ابن رشيق** يعتبر التّعريض أقسى من الهجاء الصّريح وهذا واضح في قوله:"وأنا أرى أنّ التّعريض أهجى من التّصريح، لاتّساع الظنّ في التّعريض،وشدّة تعلّق النّفس به والبحث عن معرفته، وطلب حقيقته..."(26)

وضرب أمثلة كثيرة عن كلّ نوع من الأنواع المذكورة.

موقفه من شعر الغزل:

كان موقف ابن بسام من شعر الغزل واضحا جدّا فأجاز ما وافق مذهبه ورفض ما دون ذلك، وكثيرا ما كان يعود إلى أحاديث الرّسول- صلّى الله عليه وسلّم- والأقوال المأثورة عن الصّحابة-رضي الله عنهم أجمعين- ليجعلها حجّة له وغالبا ما كان يقدّم لبعض المقطوعات الغزلية بقوله:" ثمّ أعود إلى ملح أهل أفقنا وأرجع إليها، وأكرّ بعد عليها وأقدّم أوّلا الحديث {من أحبّ فعفّ فمات فهو شهيد} والعفاف مع البذل كالاستطاعة مع الفعل"(27) فقد كان أبو الحسن يفضّل الغزل العذري الذي يخلو من أيّ وصف حسّي وضرب أمثلة كثيرة كما تكلّم عن الغزل الماجن وبيّن رأيه فيه بكلّ صراحة.

13/تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطّوائف والمرابطين، د.إحسان عبّاس، دار الشّروق للنّشر والتّوزيع،1997م.

[24]/ الذخيرة، ابن بسام،546/1.

[25]/ المصدر نفسه،546/1.

[26]/ المصدر نفسه،546/1.

[27]/ المصدر نفسه،136/1.

النّقد الدّيني:

هو نوع آخر من النّقد وجدنـاه عند ابن بسّام حيث فرّق النّـاقـد بـيـنه وبيـن الـنّقد الأخلاقي ومثّل على هذا الضّرب من النّقد بأمثلة عديدة.كما نبّـه علـى بـعـض الشّعراء الذين كانوا يستعملون ألفاظ القرآن الكريم في أشـعـارهم وتطـرّق أبـو الحسن إلى الشّعراء الذين يستعملون الفلسفـة فـي أشعارهم والتي اعتبرها من عيوب الشّعر.

النّقد الفنّي:

يتمثّل النّقد الفنّي عند ابن بسّام في البديع بكلّ أنواعه، والألـفـاظ والمعـانـي والبديهة، حيث بيّن النّاقد اهتمامه بالبديع من أوّل الكتاب حيـث يقول:" والبـديع ذي المحاسن الذي هو قيّم الأشعاروقوامها، وبه يعرف تفاضلها وتبـاينـها"(28) فـهو بهذا الكلام يعطي البديع وظيفة نقدية تتمثّل في المفاضلة بين الأشعار. وقد تطـرّق النّاقد إلى أنواع البديع وشرحها وذكـر ألقابـها وتتبّعها في أشـعـار الشّـعراء ونـثـر الكتّاب.

ويوجد هنا نوع آخر من البديع هو التّشبيه وهو مـن أكثر الصّـور البيانيـة المستعملة في لغة العرب والفتنة بالتّشبيه فتنة قديمة قدم الشّعر نـفسـه، وابـن بسّـام تتبـّعـه فـي الشّعر كما في النّثر وذكر بعض الأمثلة منه فاستحسـن منها ما أجاد فيـه صاحـبه وأتى بالجديد فيه واستقبح مـا كـان متـداولا.

كما تتبّع الاستعارة التي استوقفت النّاقد كثيرا وبحث عنها في أشعـار القدامـى وأهل بلده وأخذ أبو الحسن من كتاب العمدة **لابن رشيـق القيروانـي**، فبـيّـن نـوعـها ووظيفتها وشرح بعضها بأمثلة من الشّعر والنّثر.

وتحدّث ابن بسّام عن الاستطراد والتّقسيم والمماثـلـة والإيجـاز والمـعاقـدة والتّتميـم وعرّف كلّ نوع من هذه الأنواع ومثّل عنهـا وتطـرّق إلى قضيّة اللّفظ والمعنـى وأبدى رأيه فيها بكلّ صراحة، وتناول مسألة الأخذ والسّـرقة و نـقل في هذا البـاب من موازنة **الآمدي** واطّلع بدون شكّ على كتاب العمدة، كما أثـار قضيّة البـديـهة والارتجال وبيّن إعجاب الأندلسيين والمشـارقة حـيث كـان الشّعراء يتقارضـون الشّعر في مجالس الأمراء على البديهة بالإضافة إلـى مجموعة من الأحكام الذّوقية التـي أصـدرها بناء علـى ذوقه الشّخصـي.

ألّف ابن بسّام الشّنتريني كتابه الذّخيرة في محـاسن أهـل الجـزيـرة مـن أجل صرف الأندلسين عن الآداب الأندلسية وحثّهم على الإقبال على موروثهـم الأدبي ويعدّ الكتاب من أهمّ الكتب التي ألّفت في هذا المجال لما فيه من ترجـمات مسـهبة لأعيان الوزراء والشّعراء والكتّاب بالإضافة إلى أخبار التاريخ والنّقـد.

---

[28]/ المصدر السابق، 1/16-17.

المصادر والمراجع:

1/ ريات المبرزين وغايات المميّزين، أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد الأندلسي، تحقيق محمد رضوان الداية، دار طلاس للدّراسات والترجمة والنشر، ط1.

2/ نفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب،أحمد بن محمد المقّري التلمساني،تحقيق إحسان عباس، دارصادر، بيروت.

3/تاريخ الأدب العربي: الأدب في المغرب والأندلس: عصر المرابطين والموحدين،د. عمر فرّخ، ج5، دارالعلم للملايين، ط1997،3م

4/ الدّخيرة في محاسن أهل الجزيرة، أبو الحسن علي بن بسّام الأندلسي، تحقيق إحسان عباس، دار الثّقافة، بيروت، 1418هـ، 1997م.

5/ ينظر: ابن بسام الأندلسي وكتاب الذخيرة : دراسة في حياة الرجل وأهمّ جوانب الكتاب، علي بن محمد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989م،ص37- 38

6/دراسة في مصادر الأدب: د. طاهر أحمد مكّي، دار الفكر العربي، ط1419،8هـ، 1999م.

7/ تاريخ النقد الدبي عند العرب: نقد الشّعر من القرن الثاني إلى القرن الثّامن الهجري، د. إحسان عباس، دار الشّروق للنّشر والتّوزيع، ط2001،1

8/تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطّوائف والمرابطين، د.إحسان عبّاس، دار الشّروق للنّشر والتّوزيع،1997م